الحب في التصور الإسلامي

أحمد طه

الطبعة الإلكترونية الأولى

1427هـ - 2006م

رؤى @ للنشر الإلكتروني

الفهرس

الجزء الأول: الإسلام.. والحب

مقدمة 4

تمهيد 6

نقطة البدء 7

طاقة الحب 10

الحب.. من الطفولة إلى الشباب 13

النموذج الإسلامي.. والسمو الروحي 17

الحب.. والعلاقة الزوجية 26

العقل أم العاطفة ؟ 31

توأم الروح أم شريك الحياة 34

قوامة الرجل.. والاختيار 37

دورة الحب 39

الحب.. والمشكلات 44

الجزء الثاني: واقعنا.. والحب

مقدمة 49

النفس.. والنظام الاجتماعي 51

المراهقة.. والفراغ العاطفي 55

الشباب.. والصراع النفسي 57

الزواج الاجتماعي 60

الترهل النفسي 63

التكيف 65

الوسائل.. والمشكلات 67

العشق 70

سر عميق 80

الجزء الأول: الإسلام.. والحب

مقدمة

في البداية أحب أن أوضح مدلول هذا العنوان "الحب في التصور الإسلامي"..

الإسلام كمنهج للحياة له تصور عن كل شيئ فيها، بشقيها ـ إن صح التعبير ـ المادي والروحي أو الملموس والغير ملموس.. هذا المنهج موجود في كتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطريقة التوجه الصحيح إلى هذا الوحي الرباني (الكتاب والسنة) هو الذي يُخرج التصور الصحيح.

ولا يخرج التصور الصحيح إلا بحركة النفس المستسلمة لله ولمنهجه في خضم الحياة، فتعيش التجربة حية واقعية، فيضبط الإسلام تصورها الفكري.. ثم يتركها تتشرّب الحكمة، وتعرف الهدى من حركتها الواقعية بالتصور الفكري الرباني.

وتخرج النفس بعدها بتصور فكري وحركة سلوكية نستطيع أن نطلق عليها اسم "تصور إسلامي" لأنه يحمل هذه الخصائص [تصور رباني ونفس مستسلمة لهذا التصور خاضت به اختبار في دنيا الحياة].

ومن هنا أستطيع أن أقول: أن ما أعرضه الآن ـ بإذن الله ـ هو خلاصة تجربة واقعية.. كنت منذ بدايتها أحمل فيها "تصورًا ربانيًا" إلا إنني لم أدرك حكمته ولم أعرف هديه إلى حين تفاعل كل منا بالآخر.

وهي محاولة من مسلم يريد فيها أن يقترب إلى الصراط المستقيم والهدي الرباني، ولا أدعي أن تجربتي حكرًا على "التصور الإسلامي" لكنها فقط رحلة نفس مسلمة خرجت بتصور عن الحب من إسلامها.

اللهم ألهمنا السداد

تمهيد

الحب من المشاعر التي تعمل في الجانب الروحي من الإنسان.. والجانب الروحي غير منفصل عن الجانب المادي، فكلامها ممتزج بالآخر بلا تصادم.. والتعبير روحي ومادي هو فقط للدراسة والتمييز.

وكما ذكرت في المقدمة.. للإسلام تصور وهدي يضبط به النفس الإنسانية بكل تكوينها الروحي والمادي.. { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [1] وما الحب في الإسلام إلا واحدًا من التصورات العديدة عن الإنسان والكون والحياة ـ الهادية إلى سبيل الرشاد وإلى السعادة الأبدية ـ التي يبحث عنها الإنسان، كل الإنسان في الأرض كلها.

وما أدركته ـ من التجربة الواقعية ـ أن الإسلام فعلًا يملك منهجًا عمليًا واقعيًا دقيقًا لكل مشكلات الإنسان، ولكل ما يختلج في نفسه، وإنه لمنهج عجيب في تربيته وصقله للنفس الإنسانية.. وإنه يتفرد عن كل غيره من المنهاج في تلك الصناعة.. صناعة النفس الصالحة، وإنه كذلك ليتحدى أن يأتي أحد بمنهج يثمر مثل ثمرته، التي تُخرج النفس من بين ضيق وهم واضطراب إلى سعة وسعادة وطمأنينة.

ولنعود إلى الحب..

تلك الكلمة التي يرددها الكثيرون، ويحلم بها آخرون، ويبذلون في سبيل الوصول إليها ما يبذلون.. إلا إنهم لا يتفكرون !!

---

[1] [الملك: 14]

لا يتفكرون في الحب من حيث أنه أقوى رغبات الروح، وأعمق مشاعر تحملها النفس..

ولنتوقف قليلًا عند هذه النقطة "التفكر" لأنها نقطة البدء ـ في كل شيئ ـ في حياة الإنسان.

❖ ❖ ❖

نقطة البدء

لقد حمل الإنسان "أمانة العقل" الذي هو أداة "التفكر" وجعلته هذه الأمانة سيد الأرض، والخليفة الراشد فيها.. وعليه أن يستعمل هذه الأداة ليضبط تصوره الفكري، قبل أن يحدد سلوكه الواقعي.. ولهذا يقف الإسلام في هذه المحطة الرئيسية، ونقطة الإنطلاق الأولى قبل أن ينتقل إلى غيرها.

ونقصد بهذا التفكر ـ في موضوع بحثنا ـ هو التأمل والنظر في المشاعر التي تتحرك في قلب الإنسان ولا يراها.. إلا أنه يشعرها وتدفعه إلى الأمام ! في حركة دفاقة وحيوية فياضة، تدفعه في كل اتجاه..

نريد من هذا التفكر، أن يحدد الإنسان اتجاهه فلا يضل ولا يشقى..

وبالطبع لا نقصد بهذا "التفكر" السؤال الذي يتردد بين الشباب والفتيات في سن الزواج، هل تختار بالعقل أم بالعاطفة ؟ وسوف نتطرق إلى هذا السؤال في حينه بإذن الله..

إنما نقصد بالتفكر ـ مرة ثانية ـ محاولة إدراك الذات، وفهم المشاعر، والوصول إلى أوتار النفس الإنسانية وأعصابها الحساسة.. التي إذا لمسمتها انتفضت سعيدة أو خفقت حزينة !

وقبل أن نبدأ رحلتنا مع الكلمة الندية الجملية "الحب" أحب أن نتخيل سويًا حال إنسان تجاوز مرحلة "التفكر" وانطلق خلف "مشاعر الحب" يبحث عن سعادة نفسه..

يمكننا أن نتصور رحلته، بأنه يركب شيئ ما، يندفع به مسرعًا ولا يدري كيف يُوقفه ولا متى يُوقفه !! فيمر في هذه الرحلة بخليط متناقض من الأفراح والأحزان لا يدري سببها.. ثم تنتهي الرحلة إلى "لا شيئ" لأنها انطلقت من نقطة مجهولة فوصلت بالتالي إلى نقطة مجهولة في الطرف المقابل.. ولم يبقى إلا ذكريات الأفراح والأحزان المجهولة.. وبقي كذلك الحيرة والاضطراب.

❖ ❖ ❖

يقول صاحب "وحي القلم" : "للأسف هذه هي الحقيقة.. إن دقة الفهم للحب تفسده !"

في الحقيقة أن لا أعرف مدى صدق هذه العبارة، وهل هي خاصة بالحب أم بكل شيئ، يُدقق الإنسان في فهمه.. وأن أظن أنه يقصد بالتحديد "الحب بين الرجل والمرأة" لا الحب في إطاره الشامل..

ويمكننا النظر إلى هذه المقولة بأكثر من وجه :

- ربما يَفسد الحب بدقة الفهم، حينما تطغى النظرة العقلية الجافة عليه، فيفسد من هذا الوجه.

- وربما يفسد أثناء اكتشاف "العورات النفسية" أثناء الفهم، فيفقد بريقه الظاهري.

- وربما يَفسد، حينما يحاول الإنسان ـ أثناء الفهم ـ فصل معادلته الوجدانية عن بعضها.. فيرى مضمونًا يعاكس مظهره الجميل.

ولكننا نستطيع أن نقول بثقة: إن فهم كل شيئ، سواء مشاعر الوجدان أو حركات السلوك.. أمر يُميز الإنسان، ويسمو به.. ولكننا نتوقف ونحاول أن نضع المعايير "لألية" هذا الفهم..

إننا نريد "الفهم المتوازن" الذي يوافق فطرة الإنسان.. فهمًا لا يطغى فيه جانب على آخر، ويحافظ على الجوهر لأنه هو الركيزة والدعامة، ويحافظ على الشكل لأنه هو الصورة التي نراها.. فنضمن جمال الصورة وجوهرها.

كمن يستمتع برؤية الورود الجميلة، ويتذوق أشكالها البديعة، وريحها الطيب، وألوانها المتناسقة.. لكنه في ذات الوقت يعرف جوهرها، لأنه السبيل إلى الحفاظ عليها وإمدادها بالغذاء المناسب.

طاقة الحب

تبارك الله أحسن الخالقين.. الذي أحسن كل شيئ خلقه، وخلق كل شيئ بقدر، وأعطى كل شيئ خلقه ثم هدى.. سبحانه. خلق في تكوين الإنسان من المشاعر والطاقات والقدرات ما يحقق به دوره على هذه الأرض، وجعل دوره في خلافتها نابع كذلك من حقيقة تكوينه، فلا يحدث تصادم بينهما.. فكان دوره لا أقول مزدوج وإنما "متكامل" بين إقامة العمران المادي، وتحقيق السمو الروحي.

وحتى يصل الإنسان إلى تحقيق ذاته عليه ألا يفصل بين أجزاء هذا الدور، وإلا وقع الانحراف وضل عن الطريق. وإقامة العمران المادي: موقوف على جهد الإنسان الفكري والسلوكي في التعامل مع مكونات المادة على الأرض.

أما تحقيق السمو الروحي: فهو موقوف أيضًا على جهد الإنسان النفسي والروحي في التعامل مع الطاقة الكامنة الضخمة "الحب" وهذا هو موضوع بحثنا.

إذًا، لهذه الطاقة الضخمة هدف، وليس أي هدف إنه الهدف الذي يحقق إنسانية الإنسان.. بأن تسمو روحه فوق مادته، وبها يصير إنسان يتميز عن غيره من المخلوقات، ولهذا تبديد تلك الطاقة "الحب" في اتجاهات خاطئة من شأنه أن يُعطل هذا الهدف المصيري في حياة الإنسان على الأرض.

يقول صاحب "منهج التربية الإسلامية" في حديثه عن "طاقة الحب" : "طاقة الحب ميدان واسع شامل يفيض بأحاسيس شتى، كلها معجِب، وكلها مؤثر، وكلها جميل.

والحب هو بنية النفس الحية السوية التي تعيش متجاوبة مع حقيقة هذا الوجود.

ولكنه حب شامل.. يشمل كل الوجود.

يشمل علاقة الإنسان بربه. وعلاقاته بالكون والحياة.. وعلاقاته بكل البشرية..

والحب الإلهي أساس كل حب.. هذا الحب، بما يفيض على النفس من أنوار شفافة رائقة، وبما يوسع من آفاقها حتى تشمل الوجود كله، وبما يرفع من كيانها حتى تصبح وكأنها نور خالص مشرق متلألئ، لا تدخله عتامة الجسد ولا ثقلة الطين.. إنه عجيبة من عجائب الأحاسيس البشرية.. وإنه لفي القمة من هذه الأحاسيس.

ومضة واحدة من هذا النور الإلهي تشرق على قلب إنسان.. ومضة واحدة في لحظة خاطفة.. تفعل في النفس ما لا تفعله أجيال من التجارب والأحاسيس " والثقافات " والاطلاعات التي توسع مدارك النفس وتعمق صلاتها بالكون والحياة.

ومضة خاطفة كومضة البرق.. تضيء صفحة الكون كله في باطن النفس.. وتصل الإنسان بكل عمقه واتساعه وشموله، الذي لا يعيه في أحواله العادية ولا يدرك حقيقة مداه.. تصله بالحقيقة الكبرى الخالدة، صلة تصل إلى أعماقه، وتنفذ إلى أبعد ذرات وجوده، وتمتزج بكل وشيجة حية في النفس، فإذا هي النفس شيئ واحد ممتزج الكيان..

هذه الومضة.. هذه الارتعاشة الوجدانية الواصلة.. هذه الصلة العميقة بحقيقة الوجود.. هذه الانتفاضة المشرقة التي تشع من خلال الطين المعتم فيتلألأ وينير.. هذه الإشراقة الرائقة التي تضيء للإنسان طريقه بين الأشواك، أشواك الشر والباطل والظلام.. هي الحب الإلهي الصادق الذي يمارسه الإنسان السوي، ولو مرة واحدة في حياته المليئة بشتى المشاعر والانفعالات.

وحب الكون. المتمثل في " الطبيعة " بجبالها وأنهارها ووديانها، وأرضها وسماواتها، ونجومها وكواكبها لونًا من ألوان الحب يخطر في نفس الإنسان السوي ويمثل جزءًا من " واقعه " الحي الذي يعيشه في الحياة.

وحب الكائنات الحية.. الحب الذي يجد نشوته في التطلع إلى النبتة الصغيرة تشق طريقها من الطين، والورقة النابتة من البرعم، والزهرة النابتة من الكَمّ، والثمرة اليانعة.. والتطلع إلى الحيوان الوليد يتبع أمه وأمه تُدلله وتحنو عليه، والحيوان الرشيق يجري مختالًا مزهوًا برشاقته، والحيوان الكاسر الجسور.. والتطلع إلى الطير صافات ويقبضن، بما لها من ألوان زاهية وحركات رشيقة.. لونًا آخر من ألوان الحب يخطر في النفس السوية.

وحب البشرية.. الحب الذي لا يتجه إلى صديق معين ولا صاحب ولا منفعة.. وإنما يشمل الناس جميعًا بمودة لطيفة، تحب لهم الخير، وتحس نحوهم بوشائج القربى والأخوة الودود.. أليس لونًا من الحب، تفيض به النفس السوية أحيانًا.

وحب الأرواح المتألفة، بما فيه من إشراقات حالمة، ورحمة نَدّية، وأنس لطيف ودود، وعاطفة قوية، تملأ مشاعرهم وتحرك وجدانهم.. لونًا بل ألوانًا من الحب، تعرفه جيدًا النفس السوية المطمئنة".

❖ ❖ ❖

الحب.. من الطفولة إلى الشباب

شأن الحب كعاطفة شأن بقية العواطف التي فُطر عليها الإنسان، والتي تمثل في مجموعها طاقات روحية ينفقها الإنسان أثناء رحلته في الحياة.. إلا أن الحب يتربع على قمة هذه العواطف.. ويحمل طاقة فريدة لأنه منوط به "سمو النفس الإنسانية".

تنمو هذه المشاعر والعواطف منذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها الإنسان إلى الحياة وتبدأ رحلته فيها. ويمكنني القول أن الإنسان منذ مولده يحمل "توزان" بين مكوناته العاطفية وحاجته المادية وهو في طفولته.. فهو يتحرك في براءة إلى ما يريد سواء أكان احتياج عاطفي أو مادي، فهو يتعلق بأمه خاصة، ويصرف كثيرًا من طاقة الحب فيها، وهي ـ بفطرتها ـ تتوجه إليه بمشاعر مماثلة يشعر معها ـ دون أن يدري ـ بالتوزان والاعتدال ولا يغفل كذلك حاجته المادية التي يجدها في يسر، بحكم أنه طفل.

ثم يكبر شيئًا فشيئ، وتنمو معه كافة مكونات الإنسان ومنها الطاقة الضخمة "الحب" وإذا حقق التوزان المطلوب بين مُحبيه من أهله، وبين تلبية حاجاته المادية.. يقع التوزان مرة ثانية،

ولكن هذه المرة خارج حدود ذاته، فيستطيع "التضحية" ببعض أشياءه المادية ـ بلا مقابل ـ من أجل الآخرين، وفي هذه الحالة تكون نفسية الطفل صحيحة متوازنة.. إلى أن يصل إلى سن البلوغ وتبدأ "اختبارات الحياة" !

يحدث خلل في نفوس بعض الأطفال، وتضطرب المشاعر العاطفية لديهم، إذا كان الأبوان في حالة اضطراب عاطفي، فتصله جرعات مختلة من العواطف، يفقد معها توازنه الطبيعي.. وهناك بعض الدراسات النفسية تقول: أن علاقة الأبوان العاطفية تؤثر على الطفل حتى وهو ما يزال جنينًا في بطن أمه !

وإذا دخل الطفل مرحلة البلوغ بهذا الاضطراب يحدث له مضاعفات كثيرة نتكلم عنها في حينها بإذن الله.

وقبل أن نترك مرحلة الطفولة هذه، أحب أن نتوقف عند "مسألة نفسية" ليست تشخيص عام.. لكن يمكن القول أنها "حالة" وهي: أن هذا التوزان الرباني الذي وقع في نفسية الطفل في مثل هذا السن ـ دون النظر في استثناءات القاعدة ـ يمثل بُعدًا خفيًا في نفس الإنسان تجاه رغبته في تحقيق هذا التوزان..!!

فإذا استطعنا أن نقول: أن التوازن الروحي والمادي يقع في نفسية الطفل الصغير، وأن هذه هي القاعدة وما عداها هو الاستثناء، يمكنني كذلك أن أقول أن الإنسان كثيرًا ما يفشل في تحقيق هذا التوزان بين رغبات الروح، وحاجات المادة، بعد مرحلة البلوغ.. ويصير ذلك هو "القاعدة الشاذة" !

هذا البعد الخفي، ربما يتمثل في أمرين، أولهما: هو حب الإنسان ـ الذي يحاول ويفشل في تحقيق توزانه ـ للأطفال، لكن ليس كل الأطفال ! فقط الأطفال الذي يتوجه إليهم "بالحب" والإعجاب ويشعر معهم بالألفة أو أنه يعرفهم منذ سنوات ! ويجد قلبه متعلق بهذه النوعية من الأطفال الذين أثاروا إعجابه. وكونهم أثاروا إعجابه، بتحريك طاقة الحب.. إذاً، المسألة ليست لها علاقة برحمة الكبير بالصغير أو ما إلى ذلك..

إنها لها علاقة بالنموذج الذي يحلم به الإنسان وهو في كبره، ويراه متحققًا أمامه في الطفل الصغير، فيَروح ـ تسليه عن نفسه ـ أن يجد نفسه في هذا الطفل !

وثانيها: أن يأخذ هذا البعد الخفي، شكلًا أعمق من مجرد حب الأطفال ! وهو: أن يشعر الإنسان بالفعل أن داخله طفل.. وهذه حالة أشد من الأولى، ربما تكمن في سعي الإنسان الدائم إلى تحقيق هذا التوزان والفشل المتواصل ـ لأي سبب ـ في هذا. وفي هذه الحالة لا يجد الإنسان سعادته إلى مع الأطفال ـ فقط الذين يتوجه قلبه إليهم بالحب ـ ولا يجد روحه إلا في ظلهم، ويريد أن يبذل في سعادتهم ـ وإن كان لا يعرفهم ـ كل ما يستطيع لأنه في الحقيقة يريد أن يحقق سعادته هو من خلالهم !!.

❖ ❖ ❖

ومع مرحلة البلوغ ـ وهي مناط تكليف الإنسان ـ تتفجر فيه الطاقات واحدة تلو الأخرى، ورغم أن مشاعر الحب على القمة في النفس الإنسانية.. إلا أنها تخفت قليلًا وتتوارى خلف طاقة أخرى ومشاعر مختلفة هي "طاقة الجنس" ومشاعر "حب البروز والاعتداد بالذات" وهي ـ

لا شك ـ مشاعر طبيعية وطاقات إنسانية ركّبها الله سبحانه في فطرة الإنسان بقدر، ليحقق به التوازن المطلوب والاتجاه الصحيح في مثل هذه المرحلة من رحلة الإنسان.. وليس هنا مجال التفصيل فيها.

ولنأتي إلى المرحلة الأساسية والمحطة الرئيسية لمشاعر الحب وهي مرحلة الشباب.. وفيها تتفجر طاقة الحب من كل منابعها، وتُحلق الروح باحثة عن توأمها، ويتفتح القلب لاستقبال مشاعر محبوبها.

وأحب أن أعتذر على المقدمة الطويلة، والتي ربما أرهقت البعض.. فأنا أشعر أن عنوان "الحب في التصور الإسلامي" سيقبل عليه الشباب والفتيات ـ من الذين يحبون هذا الدين ـ لما يأملوه من إجابة على ما يختلج صدورهم من مشاعر وأسئلة.. ولم يكن بُد من تتبع الرحلة من أولها.. وأسأل الله أن يَمُن عليّ بالإجابة الربانية لما يرد على قلوبهم من أسئلة.

ولكل شباب وفتاة رحلة خاصة مع الحب.. ولا يمكنني تتبع كل رحلة للوقوف على ما فيها من الصواب والخطأ، لكن يمكننا أن نضع تصورًا عامًا أو نموذجًا إسلاميًا.. ثم نتبين نحن مدى قربنا أو بعدنا عنه.. وعلى قدر الاقتراب ـ من النموذج ـ يكون الخير.. ثم نعرج بعد هذا النموذج إلى حياتنا وواقعنا.. وننظر كيف نحقق سعادتنا بتحقيق "النموذج الإسلامي".

❖ ❖ ❖

النموذج الإسلامي.. والسمو الروحي

بالطبع لا يحدد الإسلام نموذجًا "للحب الإسلامي" فهكذا يبدو الأمر غير واقعي.. يضع الإسلام نموذجًا "للإنسان الصالح" كوحدة واحدة، والحب أحد خصائصه ومن أهم مكوناته.. لأن الإسلام سيتحرك في ترتيب ووعي ودقة وشمولية في رسم الخطوات.. ومن الضروري أن يُثبت أولًا في الإنسان طاقات ومشاعر كثيرة.. وإن كان الحب يشغل مكان الصدراة فيها، فليس هو كل الطاقات.. هذا فضلًا عن الامتزاج الجسدي بالكيان الروحي المُكون للإنسان.. لذا كانت الشمولية في تصوره بديهية أولية.

لذا يبدأ الإسلام في تحديد اتجاهات "طاقة الحب" وطريقة التعامل معها، من نقطة أشمل من ذلك بكثير وأبعد من حدود زمان ومكان الإنسان بكثير.. يبدأ من "مركز الإنسان" في الوجود الكبير ! بمعنى أن الإسلام ـ كمنهج ـ يريد أن يربط الإنسان ـ الذرة بالنسبة للوجود ـ بمركزه الصحيح منه، فلا يكون ذرة تائهة لا تستقر على حال، ولا تصل إلى سبيل.

فيحدد الغاية من وجوده ووجود هذا الكون.. وإلى أين هو صائر ؟ وما هي حقيقة وجوده، وقيمته ؟ وما هي الموازين الصحيحة التي يضبط بها حياته ؟

وهذا التصحيح هو غاية سعادة الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وإذا قطع الإنسان رحلة شاقة في البحث عن هذه الإجابات، بذل فيها من التضحيات ما بذل.. وأنفق طاقة الحب في سبيل الوصول إلى الإجابة الحقيقية.. فقد اقترب من طريق النجاة.

وأما إذا وجد إجابة جاهزة لهذه الأسئلة ـ وهذا ما يقدمه القرآن الكريم ـ فليس هذا معناه أنه لا سبيل إلى التضحيات.. إن القرآن يقدم هذه الإجابات "ليدخر" للإنسان طاقة الحب في سبيل الوصول إلى أقصى درجات السمو الروحي.. وليحقق في أقصر مدة الحق والعدل الرباني على الأرض.

أي أن الإسلام يبدأ فيها من تصحيح مركز الإنسان.. لمن لا يعرف الإجابة، من نقطة "تضحيته" أي بذل طاقة الحب في معرفة الإجابة. ويبدأ فيها لم يعرف الإجابة.. ببذل طاقة الحب في محاولة "السمو الروحي".

فماذا يعني السمو الروحي ؟

السمو الروحي ليس سبحات هائمة أو مشاعر غامضة.. يعني السمو الروحي: المحاولة الدائمة لتغليب الروح ـ كجوهر أصيل في الإنسان ـ على المادة ـ كطبيعة مكونة للإنسان ـ بمعنى تحقيق النصر للمثل العليا على طينية الإنسان..

الروح تريد أن تصعد به إلى أعلى حيث موطنها.. والطين (الطبيعة المادية في الإنسان) يريده أن يخلد إلى الأرض حيث منشأه..

وليس هذا السمو هو كبت لحاجات الإنسان المادية، إنما هو محاولة الوصول إلى نقطة التوازن.. فالإنسان بطبيعته يتحرك نحو حاجته الجسدية، لكنه يحتاج إلى جهد ومحاولات وتجارب كي يصعد بنفسه إلى مستوى الإنسانية، وهو المستوى الذي يختلف عن الحيوان

وخصائص الحيوان.. وهو كذلك المستوى الذي يستطيع فيه الإنسان أن يتخلى عن حاجاته المادية في سبيل هدف آخر أسمى وغاية كبرى أهم، إذا ما وقفت حاجته الإنسان المادية عقبة في طريق الصعود.

وعندما تشرق الروح في كيان الإنسان.. ترق معها كل جوانبه وخصائصه، ويعود ـ بحق ـ ذلك الكائن الفذ المتفرد بين كل مخلوقات الوجود.. الصالح للخلافة الراشدة على الأرض.. ذلك الإنسان الذي يحبه الله ويرضى عنه.

ترق مشاعره، وتتعالى أخلاقه، وتتعاظم مواقفه، وهو بعد مازال في دنيا الحياة !

ولكن ما علاقة الحب بالسمو الروحي ؟

إننا ـ في الحقيقة ـ نقف عن نقطة البدء الصحيحة في هذا التصور الإسلامي عن الحب..

إن هذه المحاولة الإنسانية الفريدة بين كل مخلوقات الوجود، كي يحققها الإنسان.. لا بد له من طاقة قوية وزاد كافي، كي يستطيع أن يصل إلى هذا السمو الروحي.. وهذا الزاد هو "الحب". هذا أولًا.. وثانيًا: أنه عندما تخالط بشاشة الروح وإشراقها قلب إنسان تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب. التي تلين جاسيها. وترقق حواشيها. وتندي جفافها. وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق. فإذا نظرة العين. ولمسة اليد. ونطق الجارحة. وخفقة القلب، ترانيم من التعارف والتعاطف. والولاء والتناصر. والسماحة والهوادة.

والإسلام ـ الدعوة الخالدة إلى الحق والعدل ـ يريده أن ينفق تلك الطاقة "الحب" ـ التي وهبها الله له ابتداء ـ ينفقها في الحق ، بمعنى أن المستحق الأول لهذا الحب هو خالق الروح والجسد وواهب الحياة ومعطي الحب.. كل هذا عن غنى وفضل وتكريم منه سبحانه دون أدنى استحقاق من الإنسان ، سوى فضل الله وعظمته سبحانه !

يقول صاحب الظلال عن حب الله تعالى : "وهذا الحب ليس كلمة تقال, ولكنها مرتقى عال لا يصل إليه القلب إلا بلمسة لدنية مباشرة تفتحه على هذا الأفق السامي الوضيء ؛ الذي يخلص فيه من جاذبية الذات وحبها المتوشج بالحنايا والشعاب. فإن الإنسان ليحب ذاته ويحب كل ما يتعلق بها حبًا فوق ما يتصور ، وفوق ما يدرك ! وإنه ليخيل إليه أحيانًا أنه طوع مشاعره, وراض نفسه, وخفض من غلوائه في حب ذاته, ثم ما يكاد يمس في شخصيته بما يخدش اعتزازه بها, حتى ينتفض فجأة كما لو كانت قد لدغته أفعى ! ويحس لهذه المسة لذعًا لا يملك انفعاله معه, فإن ملكه كامن في مشاعره, وغار في أعماقه ! ولقد يروض نفسه على التضحية بحياته كلها ؛ ولكنه يصعب عليه أن يروضها على تقبل المساس بشخصيته فيما يعده تصغيرًا لها, أو عيبًا لشيئ من خصائصها, أو نقدًا لسمة من سماتها, أو تنقصًا لصفة من صفاتها. وذلك رغم ما يزعمه صاحبها من عدم احتفاله أو تأثره ! والتغلب على هذا الحب العميق للذات ليس كلمة تقال باللسان, إنما هو كما قلنا مرتقى عال لا يصل إليه القلب إلا بلمسة لدنية ؛ أو بمحاولة طويلة ومرانة دائمة, ويقظة مستمرة ورغبة مخلصة تستنزل عون الله ومساعدته. ثم تفتحه على نور تطيب به حياته وتطمئن به نفسه".

والإيمان هو الحب والإجلال والتعظيم والطاعة لله سبحانه.. وهو أيضًا رحلة يعبر فيها الإنسان من عالم الحيوان إلى رحاب الإنسانية.. رحلة يقطعها في التماس الحب والقرب والأنس والاشتياق.. رحلة في التسابق بالخيرات وفعل الطاعات تقربًا إلى هذا المحبوب الأعلى الكريم في علياءه.. العظيم في جاهه وسلطانه.. المالك لكل شيئ.. المتصرف في كل شيئ.

فكيف ـ وهو سبحانه ـ بهذه الصفات وتلك الأسماء، وينصرف عنه أحد لغيره.. تعالى ؟!

والعجيب حقًا ـ كما عرفت بالتجربة الواقعية ـ أن الإنسان لا يجد سعادته أو أنسه أو اطمئنانه إلا في هذه الرحاب المقدسة الطاهرة.. رحاب حب الله..

إنه الغذاء الوحيد الذي تبحث عنه الروح وتريده، هو غاية فرحتها، ومنتهى فلاحها.. إنه يعطي للإنسان خاصية الخلود.. وخلود الروح هو عيشها الدائم بين يدي ربها..فتأنس به، وتتقرب إليه، وتسترضيه، وتسترحمه، وتوده.. وتتطلب حنانه.

وسبحان الله الكريم، الغني عن كل شيئ، الهالك دونه كل شيئ يتوجه ـ سبحانه ـ إلى هذا المخلوق بأضعاف هذا الحب، ويُقرب هذا المخلوق ـ الذرة في هذا الوجود ـ إليه سبحانه ويجعله من أولياءه، وما أعظمه وأوسعه من ود.. { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً } [2] ..

ثم يُنشأ حب الله تعالى في النفس "حب العطاء" والتلذذ به.. وهو من الضروريات والأخلاقيات المطلوبة لتحقيق دور الإنسان في الحياة.. فالإنسان يظل كامنًا داخل ذاته، حتى

---

[2] [مريم: 96]

يُخرجه ما هو أكبر من حدود كيانه وزمانه ووجوده.. وهذا الحب للعطاء يزيد من شأن الإنسان وكرامته وعزه، إذا كان نابعًا من حب الله تعالى، ورغبة كذلك في التخّلق بالخلق الرباني.

فيُسكب ـ هذا الحب ـ في قلبه محبه لا تدركها الكلمات.. محبة إلى الحق والعدل والجمال، محبة إلى الطبيعة والوجود.. محبة إلى الإنسانية.. محبة إلى الأهل والزوج والولد.. محبة تنشرح لها ذاته.. محبة خالصة صافية مجردة عن كل مقابل، سوى أنها الفضل والزيادة من الله تعالى.

ومقابل كل هذا لم يفعل الإنسان شيئًا سوى أنه شكر النعمة.. شكر النعمة التي وهبها الله له ابتداء "نعمة الحب" فكان مع الشكر الزيادة.. كما وعد سبحانه: { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }[3] ..

وبهذا الحب يصل الإنسان إلى السمو الروحي، ومن هذا السمو يتصل ـ وهو على الأرض ـ بالسماء، يتصل بالنبع الخالد المقدس.. وتنصلح جسور قلبه بينه ـ وهو المخلوق ـ وبين ربه ـ وهو الخالق ـ فيستمد من هذا النبع الطاهر المحبة الحقيقية الخالصة.. فيستطيع بها أن يقطع رحلته على الأرض في اطمئنان.. لأنه متصل ومتوجه بحبه إلى من يملك حزائن الحب والود والحنان.

وعندما تنصلح الجسور بين القلب وبين الله سبحانه، ويمتلئ القلب من تلك المحبة الطاهرة.. في تلك اللحظة.. في تلك اللحظة فقط، نستطيع أن نقول: أن هذا الإنسان ـ الذي مازال يعيش على الأرض ـ قادر على أن يحب.. إن له قلب سليم يستطيع أن يحب.. يحب أهله وزوجه وأولاده وعشيرته ووطنه.. ويستطيع أن يبذل هذا الحب في كل صوره بلا مقابل..

---

[3] [إبراهيم: 7]

وأعلى هذه الصور هو "التضحية دون انتظار جزاء" سوى وُد جديد من المولى سبحانه، وفيض آخر من خزائن حبه، ولمسة حانية من نبع حنانه، جلّ في علاه.

وفي كل هذا السمو، لم يغفل الإسلام الجانب المادي في حياة الإنسان وفي تكوينه.. بل إنه يتحرك من أجل تحقيق التوازن في ذات الإنسان..

إن قيادة الروح للكيان الإنساني، أول مستفيد منها هو الجانب المادي في الإنسان.. لأنها تعمل على ترشيد استهلاك الطاقات وفي مقدمتها "الحب" وتقود الإنسان في الاتجاه الصحيح، محافظة على وحدته وكيانه وكل طاقته.

وعندما تتمزق الروح، بالإعراض عن خالقها.. تسيطر المادة على حياة الإنسان.. وتتحول الحياة إلى آلة ضخمة.. لا مجال للعواطف والمشاعر فيها، سوى الحركة الإرتدادية التي تُحدثها الفطرة في لحظات ثوراتها.. لتذكر الإنسان بحقيقة كيانه.

وبهذا، نجد طبيعة الوحدة والتكامل في الكيان الإنساني، وفي الحياة البشرية، وفي التصور الذي يوافق فطرة الإنسان..

ولهذا فإن أي عنصر يدخل إلى الكيان الإنساني، نجده يؤثر في كل حياته.. لذا، فعندما نطرح الحب ـ مثلًا ـ كتصور، بعيدًا عن مكونات الحياة الأخرى؛ فإننا ننظر نظرة جزئية.. وشئنا أم أبينا فإن باقي مكونات الحياة، تفرض نفسها، وتؤثر في الإنسان بمقدار تفاعله معها !!

وحين تتولى المادة القيادة، في صورة الإشباع القريب للرغبات والشهوات ـ سواء أكانت وجدانية أو مادية ـ من أي طريق، فإن الإنسان تحت هذه القيادة يظل يلهث، ويقفز مسرعًا من رغبة إلى أخرى.. كلما لبى واحدة برزت له الأخرى، وكلما أشبع حاجة فقد لتوه لذاتها.. هذا إذا تركته بلا تضحيات وتكاليف.. ثم يكتشف في نهاية الرحلة ـ تحت تلك القيادة ـ أنه لم يحقق سعادته التي كان يرجوها.. ويقول: { يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي }[4] !!

بينما قيادة الروح ـ بتحقيق إنسانية الإنسان بصورتها الربانية ـ لا تلغي المادة، وإنما تضبتها بالضوابط الصحيحة.. إنها تعرف طريق اللذة الصحيح، إنها تُشبع الإنسان أولًا وتملأ الفراغات والفجوات الداخلية بالغذاء الصحيح "محبة الله سبحانه" ثم تتحرك بعد ذلك لتلبية حاجات المادة عن غنى وترّفع، فيحصل عليها الإنسان بكرامته مرفوع الرأس ـ دون أن يتمرغ في الوحل من أجل حاجته ـ ويشعر بلذاتها الحقيقية، ولا تفقد بريقها عند الحصول عليها.. كطبيعة المادة، والعيش تحت قيادتها..

إنها لا تفقد لذاتها، لأن الروح تعيش لذة أعظم منها، ولا تخشى فوات هذه اللذة الصغيرة، فيدرك الإنسان بذلك كل الحياة.. ويصل إلى سعادته الحقيقية، ولذاته الكاملة، وطمئنينته الواثقة، وحياته الطبية.

---

[4] الفجر [24].

وهكذا يضع الإسلام النموذج الواقعي المثالي، للإنسان المسلم، وللشخصية الصالحة للخلافة الراشدة، دون أن يلبي جانب ويدع الآخر.. إنه يضع النموذج عن وعي بالنفس الإنسانية، ويحقق كل حاجاتها.. لكن من الطريق الصحيح.

والإنسان في وسعه ـ وهو على الأرض ـ أن يقطع رحلة السمو الروحي، وإنفاق طاقة الحب في مكانها الصحيح.. إذا أراد ذلك.

الحب.. والعلاقة الزوجية

بداية نلحظ الترتيب والدقة التي يرسمها نظام الإسلام في إصلاح الحياة البشرية، وتحقيق السعادة لها.. فبعد أن حقق التربية الربانية بإخراج نفس إنسانية صالحة.. متصلة بخالقها، ومحققة لذاتها، تملك سعة في النفس، وطمأنية في القلب، ورقي في الشعور، وجمال في الروح، وطيبة في السلوك، وقوة في الحق.. كل هذا بعد أن أنفقت نعمة الحب من أجل المحبوب الأعلى..

يتحرك ثانية، ليجمع روحين وقلبين مطمئنين إلى الله.. فيجعل الله بينهما ـ جزاءًا لهما على شكر نعمته؛ بالتوجه إليه بالحب ـ "مودة" في العلاقة العاطفية.. وهي أقوى من الحب الفطري بين الرجل والمرأة، إن هذه المودة تستطيع أن تُذيب كل منهما في الآخر، وتُوحد طاقاتهما في اتجاه واحد، وفي انسجام لتزداد دفعة الحياة وحيويتها فيهما.. كما توحد أهدفهما وآمالهما وشعورهما.. ومن الناحية السلوكية "رحمة" هي أيضًا من صنع الله.. لتضفي على الحياة رقة وسعادة وكرامة للإنسان..

وهكذا شمل الله تعالى برعايته هذين القلبين المتحابين فيه في عالم الوجدان وفي عالم السلوك.. وأحاطهما بفيض من حبه سبحانه ليحفظ لهما مودتهما وعلاقتهما. وكان هذا إحدى آياته في النفس الإنسانية وفي الحياة البشرية، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [5].

وليس هذا فحسب بل يغوص منهج الإسلام في رحلة عميقة في النفس الإنسانية رجلًا وامرأة ليربط ـ في الزواج ـ بينهما بكل الروابط الرقيقة القوية..

ولنتأمل سويًا هذه التوجيهات: { رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ } [6] و{ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ } [7]..

ولنتوقف أمام نفسية الرجل والمرأة في الحب والزواج حتى يتسنى لنا أن نفهم مدلول هذه الآيات.

❖ ❖ ❖

في عالم الرجل: تتنوع طاقاته واستعداته، وتتنوع كذلك أهدافه وحركته في الحياة.. وهذا لا شك مناسب لدوره في الخلافة الراشدة، لذا فإنه يضع لنفسه أولويات وأهداف حسب الأهمية التي يراها..

والزواج [8] بالنسبة إليه أحد هذه الأهداف، فكيف ينظر إليه ؟

---

[5] [الروم: 21]
[6] [الفرقان: 74]
[7] [طه: 131]
[8] سنتكلم عن العشق في حديث منفرد إن شاء الله.

نقول أولًا: أنه يختار توأم روحه أو شريك حياته، وفق معايير معقدة من الناحية النفسية، بسيطة من حيث طبيعتها الشكلية.. يحدد هذه المعايير وفق عوامل كثيرة: منها رواسبه الثقافية ـ طريقة التربية ـ نظرته للحياة ـ تركيبته النفسية ـ البيئة الاجتماعية.. ثم تتفاعل كلها لرسم الصورة المثالية الحالمة عن "فتاة الأحلام" وبحكم طبيعة الرجل.. تظل هذه الصورة بمعايرها في تزايد دائم..

بمعنى أنه إذا كان يريد فتاة أحلامه جميلة.. ثم استمر تفاعله مع الحياة فشعر بضرورة أن تكون جميلة ومثقفة أو رياضية ـ مثلًا ـ فسوف يضع الثقافة أو الرشاقة ضمن معاييره وهكذا..

ثم إذا قُدر له الزواج، بالوصول إلى أقرب صورة من النموذج والصورة التي حدد معاييرها، فإن تلك المعايير لا تتوقف عن الاستمرار في وضع الصورة المثالية.. إنها تظل تتطور وتتحسن بحكم التفاعل مع الحياة..

ولأن الرجل هو الذي يُقبل على المرأة ويختارها، يأتي الإسلام ليوجه أبناءه إلى أن يتوجهوا لله سبحانه، أن يهبهم قرة العين بالأزواج، وأن يحفظهم من القلق الذي ينتابهم كلما جدّت معايير أخرى !

وبالرغم من أن الإنسان يتحرك بكل كيانه، ليضع أفضل صورة وضوابط للاختيار، ويجتهد في ذلك.. رغم كل هذا إلا أن الله وحده هو الذي يملك أن يهب لعباده قرة العين والرضى، فسبحان من بيده ملكوت كل شيئ !

وهو تعبير لطيف حيّ متحرك { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ } فيرسم تطلع العين وحركتها بحثًا عن صورة جديدة للنموذج الذي تتخيله الأذهان، والتي تظل في نمو دائم.

ويوجه القلوب إلى أن تسكن إلى خالقها، وتطمئن إلى زوجها.. فالله هو الذي يملك "المودة والرحمة وقرة العين" فليسألوا الله من فضله.

ويمكن من هذه النظرة أيضًا ـ الحركة الدائمة نحو التطلع إلى الصورة المثالية ـ أن نفهم تشريع الإسلام ـ من الناحية النفسية ـ في تعدد الزوجات.. حتى يحفظ البيوت والنفوس من الافتراق أو من الوقوع في المعصية.

أما في عالم المرأة: فللمرأة خط عريض في فطرتها، وهو أعمق الخطوط لديها وهو "خط الأمومة والاستقرار" وهو مناسب لدورها في الخلافة الراشدة على الأرض: { صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً } [9] يتبع هذا الخط أو الوتر في نفسية المرأة الوسائل المؤدية إليه وهو "الزواج" فتكون عاطفة الحب، ورغبة الجنس لهما طبيعتهما وقوتهما الخاصة في المرأة.. وباقي الخطوط إما تابع إلى هذا الخط العميق أو سطحي الغور.. لا يمثل عمقًا، وربما لا يمثل أهمية بالنسبة لخط الأمومة.

ولهذا، فلها طاقة فياضة واسعة، لكنها في اتجاه واحد.. في اتجاه الرجل الذي تُسلمه نفسها، وتستسلم له في حب ورضى وسعادة.. إنها تحب أن تكون تحت ظل رجل تحبه،

---

[9] [البقرة: 138]

وتسكن إليه.. وهذه كل أمانيها التي يتبعها ـ بالطبع ـ رغبتها في الأمومة والاستقرار والحفاظ على زوجها وبيتها.

وتستسلم أو تتمرد المرأة ـ حسب شخصيتها ـ وتخرج عن ظل هذا الرجل، وتتحول حياتها، وحياة من حولها إلى جحيم.. إذا تغير هذا الحب أو أصابه العطب.. إنها في هذه الحالة تشعر بخسارة ضخمة جدًا.. إنها لا تملك أن تتوجه بالحب إلى رجل آخر، أو تمضي تتسول بعواطفها.. إنها تنفقها دفعة واحدة ـ عن حب ـ في سبيل زوجها.. حينما تطمئن إلى أنه الحارس الأمين على نفسها، فتهبه كل كيانها..!

ولهذا تفقد المرأة ذاتها إذا ضاع هذا الحب، ولم يأتي ثماره.. ويترك جروحًا عميقة تؤثر على دورها في الحياة.. ولهذا يتجه الإسلام بعناية خاصة رئيفة في تشريعاته لحقوق المرأة، وكذلك في هدي المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسنته الكريمة لمن يريد الوقوف عليها.

العقل أم العاطفة ؟

أيهما أولى بالقياس العقل أم العاطفة.. لا سيما في اختيار زوج النفس الإنسانية ؟

صياغة هذا السؤال مرفوض من الناحية النفسية ، مرفوض لأنه ليس هناك انفصال في كيان الإنسان ، وكل طاقته لكل واحدة وظيفتها وأهميتها.. وأي خلل أو اضطراب أو تعطيل يقع في إحداها فهو ـ لا شك ـ يصيب الإنسان بفقدان التوازن ، وبالتالي الشقاء.. وحينما يقع الخلل أو الانفصال داخل كيان الإنسان يكون أقرب إلى المقاييس المادية سواء من ناحية العقل أو العاطفة !

والعقل : طاقة محايدة ، وظيفتها التفكر والتأمل بحرية ـ دون الخضوع لرغبات النفس ـ بمعنى أننا حين نحاول التفكر والتأمل ، فإن النفس تفرض تصورتها ورواسبها على العقل ، وتريد منه أن يبحث عن مبررات لتلك التصورات صحيحة أم خاطئة.. وهذا لا شك تبديد وتعطيل لطاقة العقل في كيان الإنسان.. وتجعله في دور الخدام ، لا في دور الباحث المتأمل !!

بمعنى آخر : أنه ـ مثلًا ـ إذا وجد الإنسان شخص أحبه ، واتجهت له النفس بعاطفة ما ، فإن النفس تريد ـ في هذه الحالة ـ من العقل أن يخدم هذه العاطفة بإيجاد الأسباب المنطقية والمسوغات الواقعية ، لتبرير هذا الحب لذاتها ولمجتمعها.. وإذا كره نفس الشخص ـ لأسباب

نفسية حاصلة ـ فإن النفس تتجه إلى العقل ثانية لإيجاد أسباب منطقية أخرى لتبرير هذا الكره لذاتها، ولمجتمعها !

وبهذا، فإننا لم نعطي العقل حريته في تقويم المشاعر والأشخاص، ولم نستعمل هذه النعمة بالوجه الصحيح.. ولكي تعمل طاقة العقل بشكل محايد، لا بد أن تنطلق بحرية، دون سيطرة النفس بمقررات سابقة.

أما العاطفة: فتعمل ـ في الجانب الآخر بعد الحصول على المعايير العقلية السليمة ـ على بناء جسور الحب، وتهيئة النفس لاستقبال شطرها الثاني، فتعمل على تزيين النفس وتجميلها، وترتيب سكنها، وإطلاق طاقاتها، واستعدادها للتنازل عن بعض عاداتها.. حتى تكون في أجمل صورة تستطيع معها أن تذوب في توأمها في انسجام ومحبة.

وبهذا تعمل العاطفة على إذابة الفروق والاختلافات الطبيعية النفسية..

ويكون العقل ـ في الغالب ـ أقوى عند الرجل، والعاطفة ـ في الغالب ـ أقوى عند المرأة، وذلك لأن الرجل هو الذي يُقبل على المرأة ويختارها.. والمرأة ـ بحكم قوة عاطفتها من الناحية الفطرية ـ تكون أكثر استعدادًا لحسن الاستقبال، والتهيئة.. فينجذب إليها الرجل، وبالتالي.. تتحرك كل طاقة في اتجاهها الصحيح، ويحدث التوازن المطلوب الذي يحقق السعادة للإنسان.

وبهذا، نجد أن كلا الطاقتين (العقل والعاطفة) ضروريتين في الاختيار، ولا انفصال بينهما ولا اعتراض.. ولكل منهما وظيفته.

أما الافتراق الذي يحدث بين طاقة العقل والعاطفة، فسنتحدث عنه ـ بإذن الله ـ عند الحديث عن واقعنا.

نأتي إلى مسألة أخرى ذات بعد قوي في طبيعة الحب بين الأزواج، وهي الروح..

ليس للروح معنى محدد في عقل الإنسان، لأنها في جانب الغيب من حياته.. إلا أن لها تأثير ضخم يُشكل شخصية الإنسان في الحياة، وتجعلنا نرى تلك الروح من وراء القسمات والوجوه !

ولكل إنسان موجات نفسية خاصة، تتحرك فيها الروح، وتحدث خلالها التفاعلات الإنسانية.. وجدانية وسلوكية، مَن هم على نفس تلك الموجات.. يحدث إلتقاء طبيعي يتبعه تآلف ومحبة، أو كما حدثنا رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"[10].

فهي "جنود" بمعنى أنها مرتبطة بخصائص الإنسان في مجموعه.. تحمل جوهر نفسه، وشاكلتها.. وعند التعارف والالتقاء على نفس الموجات يحدث الائتلاف، وإذا حدث تناكر أو تصادم يحدث الاختلاف..

وهذا ما يجعل الإنسان يقابل إنسان لأول مرة، يشعر معه أنه يعرفه من سنين !

---

[10] [صحيح البخاري: باب أحاديث الأنبياء]

والأرواح هي "جنود الحب" تطرق أبواب الأرواح الأخرى وتستفتح عليها، فإن قبلت.. امتدات الجسور العاطفية التي يعبر عليها الحب، ثم تذوب تلك الأرواح في بعضها.

ولهذا، ليس من الحكمة أن يختار الإنسان رفيق عمره، وهو لا يلتقي معه روحيًا، لأن الحياة بدون هذا التوافق الروحي.. تكون إما باردة أو على شفا الانهيار.

❖ ❖ ❖

توأم الروح أم شريك الحياة ؟

تختلف النظرة إلى شطر النفس الإنسانية.. البعض ينظر إلى زوجه كونه توأم روحه.. ويظل يبحث من بين الوجوه عن ذاك القلب الذي يوافق دقات قلبه.. وينظر البعض الآخر على أن الزواج شركة.. ويمكن أن يتم بصورته التقليدية بعيدًا عن النظرة الحالمة العاطفية التي يتهمون ! بها أصحاب النظرة الأولى..

فأيهما أولى بالاتباع.. ؟!

في الحقيقة، لا يسأل أحد هذا السؤال، لأن كل إنسان يتحرك بالفعل نحو ما تتجه نفسه إليه.. فمن يبحث عن توأم الروح يظل يبحث وإن أعياه البحث، وأصحاب النظرة التقليدية يتجهون نحو هدفهم في صمت !

ولكن يمكننا أن نقول: إننا نريد أن نصل إلى الاعتدال الذي يحقق للنفس توازنها ومن ثم سعادتها..

إن الذي يبحث عن توأم روحه، ولا يقبل بغيره.. هو لا شك إنسان يحترم إنسانيه، ويحترم كذلك من يبحث عنه، وأن الذي يقبل بما في يديه هو إنسان قنوع وبسيط، ولا يريد تعقيد حياته..

وأنا أميل إلى نظرة "البحث عن توأم الروح" ومن توافق "كمياء" روحه.. موجات قلبي، ولكن..

ماذا نفعل إذا لم نجده ؟ وما هي المعايير التي ندرك بها الاختيار الصحيح، لاسيما في زمن "التصنّع والخداع" فيه، يُجيده الصغير قبل الكبير ؟!

هل نقبل ما يقع في طريقنا، ونقول هذا هو القسمة والنصيب، ونُوكل عجز أنفسنا إلى قضاء الله دون أن نشعر ؟!

دعونا أولًا نضبط أنفسنا من الداخل، حتى ننطلق من نقطة صحيحة، فلا نضل ولا نشقى.. نضبط أنفسنا بمعرفة "نفسية دقيقة" بالغايات التي نريد الوصول إليها..

ثم ندرك أن من حق الإنسان أن يبحث عن شطر نفسه وتوأم روحه، ومن حقه كذلك ألا تتعقد حياته وتمضي في رحلة بحث مجهولة !

بمعنى أننا لا "نطغى" في كلا النظرتين.. لا نعيش في رحلة حالمة من البحث، ولا في صورة تقليدية ناتجة عن الفشل في عدم وجود توأم الروح أو ناتجة عن أسباب أخرى..

وأنا أرى أن التوازن بين طرفي النظرتين.. ينتج من قدرة الإنسان على "التغيير" والرغبة الدائمة في التحرك نحو الأمام..

بمعنى.. أن الإنسان ربما ـ ونادرًا ما يحدث ذلك ـ يجد في طريقه ـ قدرًا ـ من له نفس دقات قلبه، ويشعر معه بالاطمئنان.. ولكن لا يكفي هذا في ضبط الاختيار، إنما لا بد من تجارب حياة واقعية، تثبت المعادلات الوجدانية الداخلية ونتائجها الفعلية..

وإذ لم يجد الإنسان هذا القَدر النادر، عليه أن لا ينتظر مجيئه إليه.. إن الإنسان قادر على صناعة سعادته، وقادر على صياغة حياته بالطريقة التي يحبها مهما كانت التحديات.. ومن هنا أقول: أنه قادر على صياغة جديدة لإنسان يصبح "بميلاد جديد" توأمًا له !

إن الإنسان يحتاج في طريقه لتغيير أي شيئ على هذه الأرض إلى أشياء ليست بالكثيرة.. يحتاج إلى الصبر على التكاليف، واليقين في قدرته، والاستعداد للحركة للأمام، والشوق إلى رؤية الثمرة التي بذل فيها جهده.

بمعنى.. أن الإنسان لا ينتظر المجهول، فإن توسم الخير في إنسان عنده من (الاستعداد والقابلية) للتغّير نحو الأفضل، والتطلع الدائم إلى السمو بالنفس والحياة.. فإننا نستطيع أن نقول بثقة أننا في طريقنا إلى "صناعة إنسان صالح" يمكننا أن ننعم بالحياة معه.. ويمكننا كذلك أن نكون معه على نفس الموجات الروحية، وما تحمله من آمال وطموحات..

وبهذا نخرج من دائرة "البحث عن المجهول" وكذلك من دائرة "الاستسلام للواقع"..

وأنا أعرف نقطة التوازن أو أقول أشعرها.. عندما أجد أنها النقطة التي تريد من الإنسان العمل والسمو والارتفاع وإعمار الحياة، وتغيرها دائمًا نحو الأفضل.

❖ ❖ ❖

قوامة الرجل.. والاختيار

للرجل قوامة جسدية ونفسية على المرأة، وهي بالتالي مُستقبِل جسدي وعاطفي له "حرث الرجل" ولنتكلم بشيئ من التفصيل عن الدلالة العاطفية لهذه القوامة..

طالما جعل الإسلام القوامة النفسية والجسدية للرجل.. فهذا ـ لا شك ـ موافق لفطرة كل منهما، وليس تكريم للذكر دون الأنثى.. فكلاهما في منهج الإسلام إنسان مُكَّرم.

وتأتي هذه القوامة من طبيعة الرجل والمرأة.. وتبدأ باستعداد الرجل ـ في الإسلام.. كزوج ـ بالإقبال والتوجه العاطفي إلى زوجه.. في هذه اللحظة عند المرأة، تبدأ التهيئ والاستعداد والإقبال والإدبار والظهور والاختفاء.. إلى أن تطمئن نفسيًا وعاطفيًا إلى ذاك الزوج.

فتبدأ الخطوة التالية: وفيها يبدأ الرجل، بالإنفاق والبذل العاطفي تجاه زوجه مثل من يضع البذور "المشاعر والعواطف" في الأرض الصالحة "المرأة" فتستقبل المرأة هذه الإنفاق العاطفي.. بموجة من الحب كبيرة وقوية، تكشف عن فطرتها وطبيعتها.. مثل الأرض الصالحة، استقبلت القليل من البذور، فأخرجت الكثير من الثمار.. طالما أن الرجل قائم على رعايتها وحفظها وارواءها كلما احتاجت.

ثم تأتي فترة من الاستقرار، والتمتع بالثمار العاطفية والسلوكية بين كلا الزوجين..

بعدها تنتهي تلك الفترة..

المرأة في انتظار "استقبال جديد من الرجل" تعيش فيها على ذكريات الرحلة الممتعة مع الثمار الطيبة، وتأنس إلى كثرة الحديث عنها، وتحب من يستمع إليها.. حتى تأتي الدورة الجديدة لنمو عاطفي مثمر..

أما الرجل، فهو في عزلة مؤقتة، يبحث فيها عن الجديد الذي يمكن أن يبذله، ولا يحب لزوجته أن تقتحم تلك العزلة، حتي ينتهي من إعداده النفسي والوجداني..

ثم تبدأ الدورة من جديد، يبذل الرجل عطاءه، فتستقبله المرأة.. فيحدث النماء والخير، ثم فترة من الاستمتاع، ثم سكون عاطفي، ثم دورة جديدة. وهذا غالبًا ما يحدث في فترة التعارف واللقاء الأولى بين الأزواج، وفي السنين الأولى منه.. فهل تتوقف هذه الدورة فيما بعد ؟ [11]

❖ ❖ ❖

[11] [أما حين يحدث مسخ فطري بتولي المرأة القوامة العاطفية.. تسير تلك الدورة في الاتجاه الخطأ، وتحقق الشقاء لكلا الزوجين، وسنتكلم عن ذلك ـ بإذن الله ـ عند الحديث عن واقعنا.]

دورة الحب

قلنا أن العاطفة تبني جسور الحب بين شطري النفس الإنسانية، وتعمل على إذابة الفروق والاختلاف بينهما.. فهل هذه الطاقة (العاطفة) دائمة متجددة.. أم تنفذ عند مرحلة معينة ؟

في بداية اللقاء بين توأم الروح، وزوج النفس.. تكون العاطفة في شبابها وقوتها، وتستقبل الروح الأخرى، كما يستقبل الإنسان كل جديد بفرحة واحتفاء ومحبة.. وتنطلق بقوة لتنشط في كل اتجاه داخل النفس.. حتى إذا ما تم اللقاء بين الروحين ـ في الزواج ـ تكون العاطفة قد قطعت شوطًا كبيرًا في الوصول إلى هذا الهدف.

ثم تمضي الحياة، وتَضْعف طاقة العاطفة، ويدخل شيئ من الملل والرتابة على الحياة بين الزوجين.. وبما أن العاطفة هي المنظم "للحب" بينهما فإن الحب كذلك يصبه شيئ من الضعف والخمول.. ويظل في خط تدريجي إلى أسفل كلما مضى العمر، وتبقى العلاقة قائمة على حسن المعشر، وروابط الأبناء..!!

ومن هذا الضعف، تخرج المشكلات إلى سطح العلاقة بينهما.. فالعاطفة التي كانت تعمل على إذابة الفروق والاختلافات الفطرية أصابها الضعف.. فتبدأ الانتفاخات الذاتية والحواجز النفسية في البروز بينهما، وتظل تنمو شيئًا فشيئ حتى ينفصلا روحيًا ونفسيًا عن بعضهما..!

وتظل المشكلات قائمة بينهما تغذيها تلك الانتفاخات والحواجز، وتفقد العاطفة كثيرًا من طاقاتها..

وليس السبب في هذا هو صعوبة المشكلات أو عدم معرفة كيفية لحلها.. إنما السبب هو عدم (الاتفاق) على حلها.. لوجود الألواح الثلجية بينهما.

ويعيشا على ذكريات الماضي الجميلة، ويستسلما للحاضر الواقع، ولا يتطلعا إلى مستقبل جديد! وربما بحث كل منهما عن حب جديد ـ إذا كان هناك طاقة له ـ بعد هذا الانفصال، والذي يبدو كثيرًا بدون أسباب، وربما وقع الطلاق بينهما !

فهل هذا دورة طبيعية للحب ؟ وهل إلى سبيل لإزالة الحواجز، وإقامة جسور الحب من جديد ؟

هذا السؤال مركب، ويجب النظر إليه من كل الأبعاد..

ذكرنا فيما سبق، أن الإسلام وضع للإزواج الصورة الصحيحة للحب القائم بينهما، وكذلك منهجه في إصلاح القلوب كي تستطيع أن تدرك معنى الحب الحقيقي، وتصل النفس إلى لذة هذا الحب.. بينها وبين الله تعالى، وبينها وبين كل نفس إنسانية، وبينها وبين الكون والطبيعة، وبينها وبين توأم روحها.. ويضع الضامن لهذا الحب، بالتوجه إلى الله تعالى أولًا، وقبل أي أحد كائنًا من كان.. ذلك أن هذا الأمر وحده، هو الذي يُصحح للنفس مركزها في الحياة.. ويسكب فيها مشاعر راقية تسع الحياة كلها.. وينمو في ظلها الحب ويثمر..

فما هو أمر دورة الحب هذا.. ولما اتجه مؤشرها إلى أسفل ؟!

إن السبب الحقيقي في هذا هو "الترهل النفسي" الذي يصيب إحدى الزوجين أو كلاهما.. ويستسلما إلى نظام الحياة الواقع.. فبالتالي يدخل الحب ـ وكذلك كل شيئ ـ تحت وطأة هذه المنظومة.. ويأخذ دورته التي تبدأ بالارتفاع التدريجي، ثم مرحلة من الاستقرار، ثم الهبوط التدريجي..

فكيف ينظر الإسلام إلى "الترهل النفسي".. وكيف يضع علاجًا له ؟

ينظر الإسلام إلى "الترهل النفسي" على أنه مرض أصاب الإنسان، بسبب خلل ما حدث في دوره في الخلافة الراشدة على الأرض، أقعده عن تجديد طاقاته وأدواته..

ولأن الحياة في حركة دائمة، ولا تتوقف عند حد، حتى يأذن الله بانتهائها.. فلم يستطع الإنسان أن يحقق دوره فيها بترهله النفسي هذا، لأن الحياة تحتاج إلى "نشاط نفسي" مماثل لحركة الحياة ذاتها.. فيه الحركة الدائمة، والحيوية الدافقة.

أي أن النموذج الذي يطلبه الإسلام، لم يتحقق على الشكل المطلوب، فاضطربت حركته في الحياة.

يطلب الإسلام من الإنسان أن يظل في "ارتفاع" دائم إلى مستوى دوره على الأرض، وإلى مستوى الرسالة التي من أجلها يمضي في الحياة.. ولأن هذه الحياة متجددة دائمًا، فإنه يريد من الإنسان أن يظل يُتابع حركته فيها، ويستحدث وسائله المتجددة لها.. وأن يتحرك بكل كيانه ـ

على التوازن الذي يحققه منهج الإسلام - بنظرة كلية للحياة، فلا يصبح أسيرًا لإحدى أركانها!

ومن هذا الأَسر يصاب الإنسان "بالترهل" وتفتر عزيمته عن الحركة، فلا تتجدد طاقته، ولا يستحدث أدواته ! وهذه نظرة كلية.. يندرج الحب والعاطفة تحت تصورها..

ففي لحظة اللقاء الأولى بين الزوجين، كنا على نفس ألحان الحياة.. من حيث الحركة والنشاط والانطلاق، وحينما تخّلفا عن الحياة.. أصبحا لحنًا شاذًا على حركتها المتجددة، ويعلاج الإسلام هذا "الترهل النفسي" انطلاقًا من هذه الرؤية..

فيبدأ - من جديد - بتصحيح مركز الإنسان في الوجود والحياة.. بعد أن وقع أسيرًا لإحدى أركانها أو أدواتها.. ثم يطلب منه "التضحية" من أجل حريته، ويتجه إلى قوة الإرادة فيه، لإحداث حركة شاملة وثورة ترفع عنه الآصار والأغلال.. فتنطلق "طاقة الحب" من جديد، وينشط معها الإنسان ليتابع حركته في الحياة، ويحقق أهداف رسالته على الأرض..

فيرتبط بالسماء من جديد.. فيشرق فيه كل شيئ من جديد.. يتجه بحب جديد إلى الله سبحانه، وعودة إلى التسابق بالخيرات وابتغاء مرضات المولى تعالى، نابع من حركته الجديدة في الحياة، فتزداد قوة "الموجات الروحية" وتنصلح الجسور مرة أخرى.. فتنشط العاطفة تبعًا لذلك، وتُذيب حرارتها كل الحواجز والفوارق بينها وبين زوجها.. فينبع الحب من جديد، ويعود صفيًا نقيًا.

وإذا استمر الإنسان في حركته المتجددة في الحياة، موصولًا بالسماء.. مجددًا الحب بينه وبين الله.. بالأعمال التي يحبها الله، ومجددًا الحب بينه وبين زوجه بالحركة المتوافقة المتكاملة في الحياة، فلن تقع "دورة الحب" وسيظل الإنسان في سعادة دائمة، وحب متجدد متواصل.. طالما أنه على نشاطه النفسي، وحركته المتجددة.

الحب.. والمشكلات

هل بروز المشكلات مرتبط فقط بالبرود العاطفي، ودورة الحب ؟

بالطبع لا، فالعاطفة والحب تعملان على إذابة الفروق، وتمنع أي حواجز أو معوقات بينهما.. ولكن تظل كل المشكلة تحتاج إلى حل، وقد تكون المشكلات ليس للزوجين سببًا فيها بل، فرضها الواقع عليهما..

وهناك نوعين من المشكلات: مشكلات وجدانية، ومشكلات مادية..

تقع المشكلات الوجدانية (نفسية ـ عاطفية ـ فكرية) نتيجة دخول أو خروج عنصر أو عدة عناصر في كيان الإنسان.. اختلفت معه حركة الموجات الروحية، فحدثت مشكلة..

وغالبًا ما يكون السبب في ذلك، هو اختلاف حركة الزوجين.. حدث معه اختلاف في قوة وسرعة الموجات الروحية (التي على أساسها تتكون الجسور العاطفية التي تنسج عبير الحب بينهما)..

ونقول مثال تبسيطًا لهذا التصور: إذا كان هناك اثنان يسيران في طريق واحد، بسرعة واحدة، بقوة واحدة.. بالطبع سيحدث بينهما توافق في الحركة، وانسجام في السير.. أما إذا تأخر أحدهما أو وقف في مكانه أو سبق الآخر، فبالتالي لن يحدث توافق بينهما.. والأمر كذلك بين الأزواج.

والحل في المسألة الوجدانية سهل: وهو أنهما يتفقا على ألا يفترقا.. وإذا وقف أو تأخر أحدهما لسبب ما، فليرجع الآخر ليأخذ توأمه أو شريكه.. وكذلك ينهض الواقف أو المتأخر سريعًا، حتى يحدث التوافق من جديد، وهذا يحتاج إلى "التضحية" ـ دون مَنّ أو أذى ـ من الطرفين.. من الذي سبق، بتعطيله عن المضي في حركته وانجازاته.. ومن الواقف أو المتأخر، ببذل جهد مضاعف يُعوض النقص الذي حدث له.

أما المشكلات المادية: أي كان المُسبب فيها، فهي ليست ناتجة عن اختلاف الموجات الروحية.. والمهم فيها هو (الاتفاق) على علاجها، ومعرفة الطريق إلى ذلك، وهي تحتاج إلى (المبادرة) نحو الخوض فيها واقتحامها.. وألا يلقي أحد باللوم على الآخر.. فإلقاء اللوم والاتهام، يصنع مشكلات مزدوجة معقدة (وجدانية ومادية) أما المبادرة فإنها تدفع الطرف الآخر أن يخوض معك طريق العلاج بلا تردد.. ثم يأتي بعد ذلك (البذل والتضحية) المناسبين للمشكلة، دون النظر في المقابل والعائد من وراء التضحية، فيكون هذا أقرب طريق إلى الحل.

ونقول توضحيًا لذلك: لو أن شخصان يسيران بسرعة واحدة، ومتوافقين في كل شيئ.. ثم اعترض طريقهما صخرة ـ أو أي شيئ آخر ـ فإذا أقبلا معًا على إزالة تلك الصخرة، فقد انحلت المشكلة، ولكن سبق ذلك عدة أمور.. أولها: أنهما اتفقا على أن هذه صخرة تعرقل سيرهما معًا، وثانيها: اتفقا على أنهما لن يتوقفا عن المضي في طريقهما، ولن يرجعا إلى الخلف، وثالثها: أنهما تحركا في توافق نحو البذل والجهد للتخلص من هذه الصخرة.

وأحيانًا ما تكون المشكلات أي كان نوعها، نعمة من الله تعالى، لتجديد العلاقة بين الزوجين إذا أصابها خلل ما !

ونجد أن حلول المشكلات الوجدانية والمادية موقوفًا على "التضحية" وهي أمر ثقيل على ذات الإنسان.. كونها ـ أي الذات ـ عالم مستقل، والآخر ـ أي كان ـ أمر مستحدث وجديد عليها، بُذل فيه الكثير من أجل الالتقاء معه وبه..

ولهذا تكون التضحية مرتبطة بأمر أبعد من عاطفة الحب بين الزوجين أو حتى من ائتلاف تلك الأرواح !!

إن الإنسان ـ بحكم حبه لذاته ـ لا يستطيع التضحية، إلا أن يكون هناك عوض كبير، يُرضي حبه لذاته.. وهذا العوض لا يأتي إلا من الله، ومن الارتباط بالله، ومن محبة الله.. وهذا وحده هو الذي يستطيع أن يدفع الإنسان إلى بذل التضحية في رضى واطمئنان.. هذه التضحية، يُقدرها الآخر، وتُشجعه كذلك على البذل والعطاء..

ومن لطيف الإسلام أنه لا يربط الزوجين برابط الزواج فقط.. بل إنه يربطهما قبل ذلك الرابط المقدس.. برابط أقدس منه، وهو رابط الأخوة في الله، والأخوة في الإنسانية.. والرابط الأعمق من هذا كله.. رابط الإلتقاء على محبة هذا الإله العظيم..

الأمر الذي يجعل التضحية ليست جهدًا يحتاج الإنسان إلى دافع من أجله، بل شيئًا محببًا إليه، يبذله بكل ثقة وسعادة.. لأنه يستقي سعادة قلبه من معين آخر.. معين حب الله، وابتغاء مرضاته.

وبهذا يعالج الإسلام المشكلات بين الزوجين، من نقطة أعمق بكثير مما تطرحها التصورات والفلسفات الأخرى.. فالذين يتبعون منهج الإسلام، تتنزل عليهم الملائكة بالبشرى والفرح، وتخبرهم أنهم لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

❖ ❖ ❖

وهكذا، يشكف الإسلام عن طبيعة النفس الإنسانية، ويرسم النموذج المثالي في صورة واقعية، ويبني المظلة الآمنة لكلا القلبين رجلًا وامرأة.. حتى ينعما بالسعادة التي وعدهما الله إياها في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ولا نملك ـ ونحن نتحدث عن الحب في التصور الإسلامي ـ أن نشرح منهج الإسلام في صناعة الإنسان، وكيف يصل إلى صورة الرجل الذي يحقق السعادة لزوجه، وصورة المرأة التي تحقق السعادة لزوجها.. وكيف يحافظ على فطرة كل منهما من التشويه أو المسخ ؟

ولكنني ـ أرجو الله ـ أن أكون وصلت إلى طريقته في الحفاظ على طاقة الحب، وطريقته في الحفاظ على الزوجين وسعادتهما.

ونقول ـ قبل أن نتحدث عن واقعنا ـ كلمة شاملة عن "نظام الإسلام" :

"إن هذا النظام دقيق في تكوينه ومتكامل في مجموعه، وكل صغيرة وكبيرة فيه متناسقة بعضها مع بعض، وفق القاعدة التي يقوم عليها، وهو من الدقة بحيث تتغير طبيعته بدخول عنصر غريب عن هذه الطبيعة في تركيبه..

لأن الاعتقاد فيه والعبادة، والسلوك والمعاملة، كلها مترابطة، وكلها متناسقة، وكلها متفاعلة، وكلها نابعة من عقيدة واحدة، ذات أهداف مرسومة، وهي تنشئ آثارها الاجتماعية وفق تركيبها الذاتي "[12]

❖ ❖ ❖

[12] [الكلمات لصاحب الظلال]

الجزء الثاني: واقعنا.. واحب

مقدمة

الإسلام: عقيدة عن الله والإنسان والكون والحياة، ينبثق منها شريعة حياة.. وعن هذه الشريعة يقوم نظام اجتماعي تتمثل فيه العقيدة والشريعة، ومن خلال هذا النظام الاجتماعي تنمو الحياة في كل اتجاه.. وتخرج المفاهيم والتصورات الإسلامية من هذا المفهوم الشامل عن الإسلام..

وهو كفيل بضبط الحياة في كل اتجاهاتها ومساراتها، وما التصور عن الحب إلا واحدًا من مجموعة تصوراته الشاملة.. وهو ليس منهج فلسفي.. يَطرح أفكاره لتبقى ساكنة في العقل أو الضمير.

إنه على العكس من ذلك، إنه يطرحها في صورة واقعية ممكنة الحدوث، ويتجه إلى تأمين الطريق للوصول إلى الصورة الواقعية التي يريدها الإسلام..

فإنه حين يطرح الحب كتصور فإنه لا يغفل الجوانب والأركان التي تحقق هذا التصور.. فنجده يضع المنهج الصحيح الذي يحافظ على فطرة الرجل والمرأة ويحفظ كليهما كإنسان، ثم يصنع منهما "الإنسان الصالح" ويحقق كافة حاجاتهما الإنسانية من خلال وحدته في النظرة الشمولية للحياة، ومن خلال الشريعة والنظام الاجتماعي الذي يقوم عليه الإسلام.

وبهذا يكون تصور الإسلام عن الحب ـ وكذا كل تصوراته الأخرى ـ حقيقة قابلة للتطبيق في واقع الحياة.

وحين لا يوجد الإسلام بهذا المفهوم، تكون هي " الحياة الضنك " وحياة الضلال والشقاء كما قال تعالى، وبالتالي يكون النظام الاجتماعي الذي ينمو ويتحرك فيه الإنسان غير إسلامي ! ولا تنطبق عليه "التصورات الإسلامية" لأن التصورات الإسلامية تصورات ربانية تبدأ من أعمق نقطة في الإنسان "عقيدته" التي تنشأ "أفكاره" فتنتج "سلوكه" ويأخذه في رحلة تصحيح وضبط وتربية حتى يصل به إلى ما يريد.. إلى الحياة الطيبة.

وبالضد تتميز الأشياء.. ولقد تحدثنا ـ بفضل الله ـ عن نظرة الإسلام إلى الحب، وما يتبعها.. والآن فلننظر في حياتنا لنرى الصورة الحقيقية لحياة الضنك، ولنعقد ـ في ذواتنا ـ الموازنة بين كلا المنهجين.. ولنختر لأنفسنا.. ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

النفس.. والنظام الاجتماعي

النظام الاجتماعي الإسلامي: هو الصورة النهائية التي يريد أن يصل إليها الإسلام، ويعيش في هذا النظام الحياة الطيبة التي وعدها اللهُ الإنسان على هذه الأرض.. محققًا الحق والعدل الرباني، والإنسان هو وحدة النظام الاجتماعي.. والإسلام ـ وحده ـ هو الذي يستطيع أن يحقق للإنسان إتزانه وحركته الصحيحة في الحياة، مرتكزًا على كل خصائص الإنسان، لأنه دين جاء من السماء، ومحفوظ بحفظ الله سبحانه.

فكيف يكون الإنسان في ظل نظام اجتماعي غير إسلامي، كما هو واقعنا ؟!

بداية، نحن نضع هذه المقدمات الطويلة، والتي تبدو في ظاهرها على غير علاقة بموضوع الحب، ولكننا نصنع ما صنعناه في الجزء الأول من البحث.. نأخذ الإنسان من نقاط ارتكازه الداخلية "العقيدة" ونحاول أن نصل إلى أعماقها.. حتى نستطيع التفسير الصحيح لسلوكه، فنصل إلى الصورة الصحيحة الحقيقية التي عليها الإنسان، ومن ثم يسهل علاجه.. إن شاء !

كما يبدو لنا ـ من واقعنا ـ أن النفس الإنسانية في ظل نظام اجتماعي يخالف فطرتها، ودورها في الحياة.. كما هو الحال في كل نظام اجتماعي غير إسلامي، تكون النفس ممزقة، تائهة، شريدة، حزينة، متناقضة، مضطربة الاتجاه، متفرقة الحركة، تظل تبحث عن ذاتها لشعورها بالفراغ الداخلي والخارجي !

لأنها تشعر بالاضطراب، وعدم التوافق بين ذاتها ومجتمعها.. بين حاجاتها وواقعها، فتحصل الغربة والافتراق، ويَرتد الإنسان إلى الخلف منحصرًا ومتحوصلًا داخل ذاته..

وبعد أن كان الإسلام يربطه بكل الوجود، ويسكب في نفسه السعة والسرور.. تبدأ رحلة الانحسار ـ في النظام الاجتماعي الغير إسلامي ـ داخل الذات.. تبدأ بانحسار الولاءات لديه، من حدود الأرض إلى حدود المجتمع إلى حدود الأسرة إلى حدود الذات !!

أي أنه ـ من الناحية الاجتماعية ـ تتفسخ شبكة العلاقات لدى الإنسان، ويشعر بأنه لا قيمة لهذه العلاقات، سوى أنها مظاهر لا تحمل أي جوهر، ويصير الإنسان عالم مستقل بذاته.. عالم مجهول ! حتى من ذاته، يدور في فلك مصالحه الشخصية.

وفي جحيم هذا الاضطراب الداخلي، والافتراق الخارجي.. تتحول "المادة" أو المحسوس إلى قيمة أولية للإنسان.. تنحسر معها المشاعر والعواطف، ثم تصل درجة الاضطراب والافتراق إلى مرحلتها النهائية وهي: انفصال شعوري للإنسان.. انفصال روحه وجسده، ويتمزق بينهما الإنسان، تحت ضغط كل منهما.

وفي هذا النظام الاجتماعي المعاكس لحركة الإنسان الفطرية.. يفقد كثيرًا من طاقاته في هذه الاتجاهات الخاطئة، ويفقد بالخصوص كثيرًا من "طاقة الحب" وظلالها النَدّية، في هجير الغربة والبحث عن ذاته وسعادته !

وأخيرًا: يظل الإنسان يبحث في هذا المجتمع عن شريك لحياته، ولعالمه الفردي المجهول.. فلا يجد !

لا يجد، لأن النظام الاجتماعي الغير إسلامي، يُفرق طاقات الإنسان بدلًا أن يوحدها، ويُشتت طاقاته بدلًا أن يجمعها، ويُخرج أفراد وحيدة ومختلفة في كل مشاعرها وطاقاتها.. لا تجد شريك ولا حبيب ولا تستطيع الالتقاء في نقطة يستريح عندها كلايهما.. وإن حدث التقاء في الظاهر، فإنه يزول بعد حركة جديدة مضطربة للمشاعر والطاقات، لأنها تسلك مسارات مختلفة أو متضادة !.

❖ ❖ ❖

أمر آخر يجدر بنا ذكره في حديثنا عن "التفسخ الاجتماعي" وهو أنه ليس فقط يُنشأ فردًا يعيش في عالمه الذاتي الخاص.. بل إن هذا التفسخ يضرب أسورًا عالية بين أفراد هذا المجتمع، الذي أصبح "كومة أفراد" يصعب، وربما يستحيل الالتقاء الطبيعي الفطري لإنجاز مهمام الحياة، التي تتطلب هذا الاجتماع الإنساني..

هذا فضلًا عما ينشأه من افتراقات نفسية واسعة، وفجوات سلوكية كبيرة، يصعب معها الإلتقاء في نقطة التوافق النفسي !

بالإضافة إلى الشح العاطفي، والمزاج المتقلب، والهروب المتكرر من الذات ومن الناس.. فيحدث فشل عقيم في عملية "التواصل الاجتماعي الإنساني" التي هي نبض الحياة في أي مجتمع.

هذا الفشل يصيب كافة قضايا المتجمع وعلاقاته بالخلل التام، والتيه البعيد.

فيجد الإنسان صعوبة وحَرج في "المكاشفة" والتعبير عن مكنونات نفسه، فيبدو منفصم الشخصية.. شخصية يعيش بها لنفسه، وأخرى لمجتمعه.. وعند الالتقاء بين الرجل والمرأة سواء في الزواج أو في غيره.. نجد عدم وضوح للرؤية في نفسية الرجل والمرأة، وما يظهره كل منهما وما يُخفيه، وما يخفى عليه كذلك.

عدم "المكاشفة" هذه، والتي لا توضح حقيقة كل منهما في أول اللقاء، لا شك أن تفاعلات الحياة تكشفها.. ومعها تحدث الصدمة لأي من الطرفين، والتي تصيب هذه العلاقة في مقتل.

بعد هذه الصدمة، يحدث هروب كبير إلى الذات، والإنغلاق عليها أكثر مما مضى.. ثم بعد فترة من هذا الإنغلاق يحدث بعض "التراكم العاطفي" الذي يُحدث بين الحين والآخر بعض الثورات العاطفية، التي تنتج سلوكًا غير مفهوم.

وهكذا تمضي حياة الإنسان في ظل هذا التفسخ الاجتماعي، وما ربك بظلام للعبيد.

المراهقة.. والفراغ العاطفي

ولنبدأ الرحلة من مرحلة تفجر الطاقات الروحية والجسدية للإنسان وهي "مرحلة المراهقة" ثم مرحلة النمو والإزدهار وهي "مرحلة الشباب" في نظام اجتماعي غير إسلامي..

يستقبل الإنسان هذه الطاقات بنوع من الخجل أو الإنحلال وكلاهما خطأ.. يشعر بالتناقض من أول لحظة يدرك فيها ذاته ومن حوله، ويستعد لصياغه عالمه الفردي، وكيف يكون.. وفق الحتميات الفكرية والرواسب التربوية لديه، وإن كان يحمل عقيدة فإنه سيشعر بالافتراق بينها وبين سلوكه.

يحدث فراغ عاطفي كبير، نتيجة الفردية التي تشعر بها النفس، ولا يجد في الأسرة فضلًا عن المجتمع سَكن لنفسه وراحه لأعصابه.. فيعلن التمرد مصحوبًا بجلد الذات، وتتنوع ردود الأفعال بتنوع ذات الإنسان.. ولا يمكن لنا تقصي هذا الأمر في بحثنا هذا..

والذي يهمنا هنا هو أن "الفراغ العاطفي" سوف يُحدث كثيرًا من الأزمات والاضطرابات فيما بعد.

يبحث الفتى عن إشباع لثورة الجسد لديه، ويقدم له المجتمع وجبة دسمة سامة، تُبدد طاقاته.. بينما تبحث الفتاة ـ فقط في تلك الفترة ـ عن مَصرف للموجات العاطفية لديها في صورة قصة حب رومانسية على طريقة الأفلام والأغاني السائدة في ثقافة هذا المجتمع.. ثم

تتجه بعد ذلك إلى إشباع ثورة الجسد وفق نظام المجتمع السائد.. مسبوقًا بالتمهيد العاطفي للعلاقة الجنسية في غالب الأحيان !

وبالطبع هذا الترتيب غير دائم، فتقلبات المجتمع ومدى انحلاله وتحلله.. تُنتج الكثير من الظواهر المختلفة التي يصعب حصرها وتتبعها.. إلا إننا نكتب فقط من نراه ونسمعه.

وفي الحقيقة، هذه التصرفات في تلك الفترة "المراهقة" قفزة خطيرة على الإنسان فيما بعد، إذ أنها انهيار مبكر لطاقاته ومشاعره.. لأن هذه الفترة يجب أن تُنفق فيها الطاقات والمشاعر في الاستعداد والتهيئة للحياة الجديدة المقبلة، لكن هذا النظام الاجتماعي بحكم تكوينه وانفساخه لا يفرق بين المراحل، ولا يهمه مراعاة حاجات الإنسان الفطرية !

❖ ❖ ❖

الشباب.. والصراع النفسي

تأتي مرحلة الشباب امتدادًا واقعيًا لمرحلة المراهقة، وغالبًا ما يحدث فيها "الصراع النفسي" بين حاجات الإنسان الروحية والجسدية من جانب، وطبيعة النظام الاجتماعي من جانب آخر.. ويمر الإنسان في هذه المرحلة بحالات مختلفة تعكس حقيقة الاضطراب الفطري الناجم عن تصادم الطاقات الإنسانية !

وفي فترة الشباب هذه تصل "طاقة الحب" وما يصحبها من عواطف إلى صورتها الكاملة، ونموها المطلوب.. يفقد الإنسان كثيرًا من تلك الطاقة تحت أول عيب وناقصة في النظام الاجتماعي الغير إسلامي، وهي: الاختلاط بين الرجل والمرأة..

وأكثر مراحل الاختلاط خطورة هي "مرحلة الشباب" لاسيما في المراحل الجامعية.. ولا نقصد بالاختلاط ـ هنا ـ أن الإسلام فقط يريد في نظامه الاجتماعي إلتزام الآداب الأخلاقية النظيفة في التعامل بين الرجل والمرأة.. إنما نقصد "البعد النفسي" الناجم عن الوجود الدائم لكل منهما مع الآخر، حتى ولو لم يحدث معاملات !

إن نظرة الرجل الفطرية للمرأة، تتمثل في محاولته لمطابقة "الصورة الخيالية" في عقله على كل امرأة يراها.. ونظرة المرأة الفطرية للرجل، هو بحثها عن حارس أمين لها، وفق معايرها..

والوجود الدائم بينهما.. يُنشأ القلق والاضطراب واستهلاك ضائع للطاقات، ربما ينتهي بفقدنها الكامل ؛ عندما يحدث استهلاك "للصورة الخالية" لدى الرجل.. وضياع "الحارس الأمين" لدى المرأة.. فينتهي الأمر بعزوف كل منهما عن الإلتقاء برابط الزواج !

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد.. فوجود الرجل مع المرأة ـ نقصد الأجنبية عنه ـ من شأنه أن يُشوه التركيبة الفطرية لكلايهما، لأن الموجات الروحية والنفسية الصادرة عن الرجل تختلف عن الصادرة عن المرأة.. والله ـ سبحانه ـ خلق تلك الطاقات في الرجل والمرأة ليحدث التكامل بينهما في صورة الالتقاء الذي شرّعه الله بلا تعارض أو تكرار لذات الوظائف..

وحين لا يحدث هذا الالتقاء، تنطلق تلك الطاقات في مسارات عشوائية متضاربة، يحدث بعدها للإنسان تشوه فطري.. فيفقد الرجل سمات الرجولة، ويكون أقرب إلى الليونة والضعف والانكسار ؛ نتيجة عن استقباله المتكرر للموجات النفسية الشعوائية للمرأة.. وتفقد المرأة سمات الأنوثة، وتكون أقرب الخشونة والجفاف والاقبال ؛ نتيجة عن استقبالها المتكرر للموجات النفسية المتضاربة للرجل ! هذا بالإضافة إلى وجود كلايهما في نظام اجتماعي يعاكس حركة الإنسان الفطرية، وتكوينه الوجداني.

وتأتي المعاملة الخاطئة أو القاسية للمرأة ـ والغير قائمة على الركائز النفسية لها، سواء أكانت هذه المعاملة تقديسًا أو احتقارًا لها.. لأن طرفي النقيض هذا لا يحقق سعادة الإنسان امرأة ورجل ـ لتُخرج المرأة عن طبيعتها الأنثوية.. وربما هذا ما يجعل المرأة تأخذ (قوامة شاذة)

على الرجل، فتكون هي القيادة الفعلية.. ليفقد كلايهما الدور الفطري المنوط به، وليشقى كلايهما بالإنسلاخ النفسي من طبيعته.. ومن فقدانه لذاته !

وفي هذا الاختلاط، يتجه الرجل إلى المرأة، وكذلك المرأة إلى الرجل.. بصورة مشوهة ومتناقضة من المشاعر المضطربة مختلطة بحاجة الجسد في الارتواء.. يضفي عليها النظام الاجتماعي عقبات مصطنعة من الالتقاء في صورته الفطرية الشرعية..

وتحت ضغط الجسد، وحركة المشاعر، وضياع اللقاء الفطري بينهما.. يحدث التقاء مشوه في صورة علاقة جنسية كاملة أو غير كاملة حسب الثقافة السائدة بينهما.. !

ويكون هذا تبديد ضخم لكافة طاقات الإنسان في مجموعها.. يفقد معه كثيراً من خصائص الإنسان، ويصعب معه تحقيق دوره في الخلافة الراشدة على الأرض.

وكما يفقد الإنسان كثيرًا من طاقة الوجدانية ـ في ظل هذا النظام الاجتماعي ـ يفقد كذلك القيمة الحقيقية للحياة.. فمع سيطرة المادة، والصراع عليها.. والأزمات الاقتصادية المتكررة، ومع كون هذه الأنظمة مضادة لفطرة الإنسان.. تنقسم الحياة البشرية إلى طبقتين: طبقة تُنتج، وطبقة تأكل ما يُنتجه الآخرون ! فيقع الظلم والعدوان الذي يُفقد الإنسان كرامته.. وبالتالي يفقده إنسانيته.

❖ ❖ ❖

الزواج الاجتماعي

وبهذا "الفراغ العاطفي" و"التشوه الفطري" و"الاستهلاك العاطفي والجسدي" يلتقي الرجل بالمرأة في صورة "الزواج الاجتماعي" المعروف بين الناس، بعدما ضاع الكثير قبل الوصول إليه..

وغالبًا ما يكون الاختيار خاطئ، للافتراق الحاصل بين الطاقات الإنسانية، وبين طاقة العقل والعاطفة ـ والتي تحدثنا عنها في الجزء الأول من البحث ـ ولا شك أن العقل غالبًا ما يكون أسيرًا لقيود النظام الاجتماعي الكائن فيه الإنسان.. والعاطفة في استنزاف مستمر، وبالتالي تكون أدوات الاختيار معطوبة، والاختيار في غير موضعه.

ومن المعروف من الواقع، ومن شواهد التاريخ أن الأنظمة الاجتماعية الغير إسلامية، تقوم في حكمها على القوة لا الحق، وعلى الهوى لا العدل. وأما العلاقات البشرية ـ وهو موضوع بحثنا ـ تقوم على حب البروز والتعالي والاعتداد بالذات.. الأمر الذي يأخذ الإنسان في فردية شديدة وأنانية في تحقيق الحاجات دون اعتبار الآخر، وهذا هو المُشكل الحقيقي لطاقات الحب والعواطف، وكذا علاقة الرجل بالمرأة في أي صورة كانت.

وبهذا يكون أول رابط في "الزواج الاجتماعي" هو الافتراق !

يرجع هذا الافتراق إلى أن الإنسان يريد تحقيق مصالحه وحاجاته الذاتية.. وما إنفاق طاقة الحب، ودوافعه العاطفية إلا واحدة من هؤلاء.. وتحقيق المصالح غالبًا ما يصطدم بمصالح الآخرين، حتى ولو كان هو زوج الإنسان.. !

لذا، فهذا الزواج منذ مولده غير مكتمل.. غير قائم على ثوابت، يأخذ دورته المعهودة المتكررة..

تلتقي النفوس ـ على الحالة التي سبق شرحها ـ في هذا الزواج.. وبينما كان الإسلام ينسج بين القلوب والأرواح والأجساد كل الروابط التي تجمع بين شطري النفس الإنسانية.. من رابط الحب في الله والاجتماع عليه، واللقاء من أجله.. إلى الصورة النهائية في الزواج، بعد التأكد من سلامة كل هذه الروابط.. يكون هذا "الزواج الاجتماعي التقليدي" على العكس من ذلك..

إنهم يلتقون وهم مُستهلكون أغلب طاقاتهم الوجدانية في عمومها، ويجتمعوا على إشباع الفراغ العاطفي أو الجسدي.. والذي تكرر إشباعه من قبل في صورة قصص من الحب فاشلة، أو علاقات جنسية !

وكما قلنا من قبل: إن الإنسان ـ في هذه الأنظمة الاجتماعية الغير إسلامية أو التي لا تقيم التصورات الإسلامية مقياسًا لحياتها ـ يحدث له ارتداد للذات، وهبوط في طاقاته العاطفية.. هذا الارتداد يجعل فترة الزواج الفعلية لا تتجاوز أشهر معدودة أو ربما أيام !

فبعد أن يحدث الإشباع العاطفي والجسدي المشوه بينهما.. والذي لا مفر منه إلا باجتماعهما سويًا.. تبدأ الحياة الحقيقة لهذا الزواج، فيعود الإنسان إلى عالمه المجهول.. عالمه الفردي المستقل، وتبدأ مواجهة الحياة بهذه الصورة الفردية، لا في صورة الاجتماع الإنساني الراقي..

ويشعر الإنسان بالخسارة من هذا الزواج، فلقد بُذل الكثير من أجل الوصول إليه.. ولم يجد ما كان يتخيله، فهو كان قادرًا على تحقيق هذا الإشباع بدون كل هذا البذل في ذلك "الزواج التقليدي".. !

❖ ❖ ❖

الترهل النفسي

وما تحدثنا عنه سابقًا عن "الترهل النفسي" نذكره هنا أيضًا.. قلنا: إن الترهل النفسي يصيب الإنسان عمومًا نتيجة تخلفه عن دوره في الخلافة الراشدة، بقعوده عن إحياء رسالته، وتجديد وسائله..

نذكره أيضًا هنا، ونضيف عليه أنه يحدث خلل في الطاقات، ويأتي هذا بعد مرحلة الزواج الأولى.. والشاهد أنه يصيب المرأة أولًا قبل الرجل..

قبل الزواج، تكون المرأة متوجهة بطاقاتها العاطفية ـ كما شرحنا من قبل ـ نحو البحث عن زوج، وتحاول أن تكون دائمًا متهيئة لهذا الأمر، وقد يصيب بعض الفتيات "اليأس" من الزواج.. لاسيما في الظروف الاقتصادية المنهارة، فتفقد تلك الطاقة حتى قبل الزواج !

وبعد أن تصل المرأة إلى غايتها الكبرى بالزواج، تفقد رونقها وحيويتها السابقة.. وتقعد عن النهوض بنفسها، فتهمل ذاتها، وتتجه نحو غايات أخرى مثل الأبناء أو غيرها ! وهذا لا شك يصيب الزوج بنوع من الإحباط والخسارة، وكثيرًا ما يصيبه نفس العدوى، فلا يوجه زوجته إلى الإلتفات إلى هذا الخلل الذي يصيب الحياة الزوجية..

ويصبح العرف السائد ـ كما هو واقع ـ أن تصبح الزوجة "أم الأولاد وست البيت" وفي الطرف الآخر، يبحث الزوج عن محض عاطفي وجنسي خارج البيت ! ليكون الإعلان النهائي عن انهيار تلك المؤسسة.

وينتهي هذا الزواج "ببروز المشكلات" إلى سطح هذه العلاقة المهلهلة.. وكما ذكرنا من قبل: أن طريقة حل المشكلات تتطلب (المبادرة والبذل والتضحية) وكل أولئك يغرسها الإسلام في الإنسان، بأن العوض من الله تعالى، حتى يضمن دوام العلاقات الإنسانية في صورتها السوية، ويضمن كذلك تحرك الإنسان نحو التغيير.. نحو الأمام.

ولا يجد الزوج أو الزوجة، دافع إلى التضحية وهو يعيش في عالم مستقل يشعر فيه بالخسارة، ويريد فيه تحقيق مصالحه الذاتية؛ فتتعمق المشكلات أكثر، وتظل قائمة حتى تنفجر، فيحدث إما "الطلاق الروحي" أو "الطلاق الجسدي" أو كلاهما.. !!

وحدوث هذا الافتراق الروحي، يرجع في الحقيقة إلى أن الإنسان فقد ذاته في رحلة البحث عنها، وانفق كل ما كان يملكه من طاقات في صورة خاطئة..

وأما الطلاق الجسدي، فيحدث نتيجة انهيار العلاقة بينهما في مجموعها.. وغالبًا ما يتدخل "التكيف" لينقذ النفس من صراعتها في صورة روابط أخرى مثل الأبناء أو طول الأمد أو تحجر العواطف بينهما !!

التكيف

والقدرة على "التكيف" من طبيعة النفس الإنسانية، التي تحميها من ضربات الصراع الدائم المستمر مع التناقضات الداخلية في ذات الإنسان، والتصادمات الخارجية مع واقعه.. وهذه الطبيعة من عجائب النفس..

وأقصى ما تواجهه النفس، هي أن تظل في صراع دائم مع نفسها أو واقعها.. لذا فإنها تلجأ إلى هذا التكيف، عندما تفقد الأمل في التغيير أو الوصول إلى سلام !

والمتأمل الحقيقي، يجد أن النفس قادرة على (التكيف) على أي وضع يُوجد على الأرض.. وفي ذات الوقت قادرة على (تغييره) والنفس تستسهل التكيف ظنًا منها أن هذا أقصر طريق إلى سعادتها !!

ويبدأ التكيف بوضع مُسلّمات فكرية للوضع الذي ستتكيف عليه النفس، ومعضلات فكرية أما طريق التغيير ! حتى تتم عملية التكيف بصورة منطقية للنفس.

وأخطر ما في التكيف، هو الظن أنه يحقق الحد الأدنى من الحاجات الوجدانية والجسدية.. فيكون محببًا للنفس ! بينما للتكيف مدة ودورة في النفس تنتهي عند اكتمالها، ليعود الصراع من جديد.

وما تحدثنا عنه في السطور السابقة، عن وضعية النفس تحت نظام اجتماعي غير إسلامي، ومصادمة هذا للفطرة، وعن اضطراب العواطف والمشاعر، واستهلاكها في مسارات خاطئة..

كل هذا لا يظل قائماً بصورة واحدة.. إنما يأخذ درجات متفاوتة من التكيف، ودورات متجددة كذلك منه..

وهذا ـ على الحقيقة ـ من أكبر العقبات أمام النفس الإنسانية لوصولها إلى السلام المطمئن الذي تريده ! لأن هذا الوضع الخاطئ الذي تكيفت عليه النفس، يتحول في مرحلة من دورات التكيف إلى "الشكل الطبيعي" بل و"المقياس" والنموذج الذي نقيس عليه ذواتنا !

فبدلًا من إساقط غشاء التكيف الذي يخفي عن النفس عيوبها، نجعله هو الواقع المطلوب.. وبهذا يحدث هروب واختفاء ثم ظهور وعودة إلى المشكلات الوجدانية منها والمادية.. ثم اختفاء مرة أخرى ! وتظل النفس في عجز دائم عن الوقوف على أسباب سعادتها..

إلى أن يأتي من يُحدث "ثورة مضادة" لكن في الطرف العكسي من هذا الواقع المُتَكيف عليه المجتمع.. ثم "ثورات مضادة متكررة" حتى يصل الإنسان إلى نقطة التوازن !

الوسائل.. والمشكلات

ولهذا نجد هذه الأوضاع الاجتماعية، معقدة للغاية.. ولا يستطيع أحد الاطمئنان إلى الأسباب الحقيقية للمشكلات.. لأن النفس تبقى في تردد بين "التكيف" لتحقيق حاجاتها بالصورة التي يتيحها المجتمع، وبين الصدام مرة أخرى تحت ضغط الفطرة؛ بعد انتهاء دورة التكيف.

وعندما ينظر الإنسان إلى الشكل الظاهري لهذه المشكلات، ويحاول استحداث "وسائل" جديدة لحلها.. ولا يصل إلى النتيجة التي يرجوها.. يرجع هذا إلى النظرة السطحية للمشكلة، وليس إلى جوهرها أو حقيقة أسبابها.

وهذا ما تطرحه العلوم الغير قائمة على التصورات الإسلامية الصحيحة، إنها تبحث بجد ومثابرة عن حل، لكنها لا تصل إلا إلى "وسائل" لمعالجة البثور الخارجية، أما الأسباب الحقيقية فهي كامنة هناك.. في النفس الإنسانية !

الأمر الذي انطلق منه الإسلام، ليصل بالإنسان إلى السعادة الحقيقية، وليَنفرد ـ لأنه رباني ـ كمنهج حياة؛ بالوصول إلى الحياة الطيبة.. { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }[13]

---

[13] [طه: 123]

وإننا لا نرفض تلك الوسائل التي يبتكرها الإنسان، لتعلاج مشكلاته، وتغير من سلوكه.. وما يحاوله من نهضة وتنمية وتجديد لحياته.. ولكننا نبحث ونتحدث عن "التفعيل" الصحيح لها، وعن الثمرة الجنّية التي يمكن تحقيقها من وراء هذه الوسائل.. لأننا على يقين أن الوسائل لن تحقق نتائجها التي تصل بالإنسان إلى السعادة الحقيقية، دون أن تكون هناك "ركائز نفسية" صحيحة تنطلق منها..

فضلًا عن أنه لا بد لكل عمل ـ وإن كان صحيحًا في ظاهره ـ أن يكون له اعتبار أخروي.. فالله تعالى يخبرنا عن الأخسرين أعمالا فقال: { الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [14] والضلال ينشأ من عدم اتباع الهدي الرباني أو عدم اعتبار الآخرة..

ولهذا يطرح الإسلام في معالجته لأي مشكلة أيًا كانت، العقيدة الصحيحة، والركائز التي ينطلق منها الإنسان.. ليحدد مساره الصحيح في الحياة.. ثم ينطلق بعدها ليبتكر وسائله وأدواته، التي تنهض بحاجته ومهامه وسعادته في الحياة.

❖ ❖ ❖

وفي نهاية الحديث عن واقعنا نقول: أن المجتمع يعاني من حالة عامة من "الجفاف العاطفي" نتيجة سيطرة المادة على معتقدات الناس، وانحسار الروح واختناقها في عالم متوحش.. لذا ـ ومخالفة للشكل الطبيعي ـ نجد المرأة تبلور عواطفها ومشاعرها تجاه الوضع الأفضل اقتصاديًا،

[14] [الكهف: 104]

لا المستقر عاطفيًا.. وربما عجزت عن إيجاد كليهما، وكذلك تصادم كل من حاجات المادة، ورغبات الوجدان خاصة في الأوضاع الاقتصادية الضعيفة.. ويظل الصراع قائمًا ما دامت هذه الأوضاع قائمة.

أما الرجل، فإنه يبلور معاييره في الأشكال المادية الظاهرة، التي غالبًا ما تزول بعد انتهاء بريقها..

ويمكننا القول: أن الذي يعيش وضعًا أقرب إلى إنسانية الإنسان وفطرته.. عليه إعمال طاقة العقل والعاطفة دون انفصال.. واستخدام كليها ـ بالصورة الربانية ـ في صياغة حياته، حتى يحدث الانسجام السوي المطلوب..

وأما الإنسان الذي يعيش وضعًا يحطم إنسانيته، ويدمر خصائصه، ويتمزق في صراع حاجات المادة، وخلجات الوجدان ـ كما هو حال الأغلبية ـ فإنني أتحرج من أن أُطلق نصيحة في الهواء.. بينما يصرخ هو من آلم الصراع.. لذا، فالنصحية تكون حسب كل حالة وأوضاعها، ولكن..

وأحب أن أضع سؤلًا يُجيب عليه كل إنسان بالطريقة التي يشاء:

ماذا يمكن أن يكسب الإنسان، إذا خسر نفسه ؟؟

.....

العشق

إنه من آيات الله تعالى في النفس الإنسانية، وهو أعلى درجات الحب.. يصيب الإنسان في أي زمان أو مكان يعيش.. سواء في ظل نظام اجتماعي إسلامي أو في جحيم نظام اجتماعي غير إسلامي.

يأتي إلى الإنسان دون سابق استئذان، وربما دون رغبة منه؛ فيغير في الإنسان ما تعجز السنوات أن تغيره!

ذو موجات قوية، وسيطرة قلبية، والتصاق روحي، وأسر عقلي.. لا تفارق شباكه الإنسان لحظة حتى في منامه.

والعجيب في أمر العشق، أن الإنسان يشقى به، وإن وجده حلو المذاق.. فلا يريد التخلص منه، ولن يستطيع التخلص منه، دون أن يدرك أسبابه وحقيقته..

في القلوب التي لا تستسلم للإسلام؛ يستحيل أن تفهم معنى العشق.. فقط تدرك آثاره، وتشقى بها.. وقبل أن نُحلل حالة العشق، يجب أولًا أن نقف على التشخيص الصحيح له، حتى لا تختلط علينا الأمور.

ولا بد أن نعرف قبل هذا التشخيص، أن العشق صورة غير سوية من الحب، وأنه مرض يصيب الإنسان، ولا يدفع به ولا بالحياة إلى الأمام.. ومن عنده اعتراض على ذلك، فلينتظر حتى نُبين التصور كاملًا..

ونقول: إن هناك انجذاب فطري طبيعي بين الرجل والمرأة عمومًا.. لا يدخل في نطاق العشق..

وهناك إعجاب وحب لرجل أو امرأة بعينها، نتيجة تطابق جزء من الصورة الخيالية مع الواقع.. وهذا لا يدخل في دائرة العشق..

وهناك ائتلاف روحي وسكون نفسي بين رجل وامرأة بعينها، نتيجة توافق سرعة وقوة الموجات الروحية.. وهذا لا يدخل في دائرة العشق.

لأن كل هذه الحالات السابقة وتوابعها، يستطيع الإنسان أن يتركها دون أن تسبب له شقاء أو عذاب..

أما أعراض مرض العشق.. هو أن يتصور الإنسان معشوقه كل شيئ، فيرى من خلاله الحياة، ويجعله هو نفسه وروحه التي لا تفارقه..

وحين تفارقه يشعر وي كأنه ينسلخ من نفسه وتتمزق روحه.. فيظل ملتصقًا بمن يعشق، وإن كان في ذلك الشقاء !!

يتبع ذلك تفكير دائم في المعشوق، ربما يُعطل حركته المعتادة في الحياة، ولا يشعر بالسعادة إلا برؤيته، ولا يتذوق شيئًا إلا معه، ولا يطمئن لأحد غيره ! كل هذه الآصار والأغلال التي يجد الإنسان نفسه فيها، ولا يرغب في التخلص منها ! يرجع إلى اضطرابات داخلية وتفاعلات غامضة تجعله في حيره من أمره.. حتى يصل الأمر إلى "كره مؤقت" للمشعوق نتيجة رغبة الذات في السكون والاطمئنان ! ينتهي "براحة مؤقتة" مع وجود المعشوق..

وهكذا يظل العاشق بين "راحة مؤقتة" في وجود الحبوب، و"كره مؤقت" في حالة فقدانه !

وكما نرى عمق هذه الحالة، وصعوبة في فهم سلوكياتها.. إنما يرجع إلى أن طاقة الحب ـ وهي أعلى الطاقات الروحية ـ تنطلق بسرعات أكبر بكثير من قدرة الإنسان، فلا يستطيع تحملها، ولا تأتي ثمارها.. تمامًا كمن يسقي النبات بالمياه حتى تموت !

وآخر ما نختم به التشخيص هو هذه الظاهرة العجيبة..

من المعروف عمومًا أن المشاعر والعواطف ـ في صورتها السوية أو المنحرفة ـ إنما تتم بين رجل وامرأة يتبادلان الحب أو الإعجاب في أي صوره..

أما في مرض العشق، فنجد أن "تبادل" الحب أو "التوافق" ليس شرطًا فيه.. ! بمعنى أننا نجد إنسان يتوجه بكل طاقاته العاطفية إلى معشوقه، دون رغبة المعشوق في ذلك، أو عدم اكتراثه!

وكل هذا يجعلنا نُقر أن العشق صورة غير سوية من الحب، حتى في صورته الفطرية، وحتى دون النظر إلى الصورة المثالية الواقعية التي يرسمها التصور الإسلامي.

❖ ❖ ❖

وتختلف حالة العشق في الرجل عن المرأة، بالرغم من التشابه بينهما في الأعراض السابق ذكرها.. يرجع هذا الإختلاف إلى التركيبة الفطرية لعواطف الرجل والمرأة..

في الرجل: تكون طاقة الحب ـ في طبيعتها الفطرية ـ متنوعة ومتعددة كي تلائم الوظيفة الفطرية له، وتكون العلاقة مع المرأة ـ في صورتها المشروعة ـ أحد أشكال هذا التنوع..

أما في حالة العشق، يفقد الرجل هذا التنوع، وتتوجه طاقة الحب ـ في صورة غير طبيعية ـ لتزيد قوتها وسرعتها عن حدود طاقته ليتوجه بها إلى معشوقه.. فتضطرب حياته، ويفقد دوره الحقيقي فيها، ويشقى بهذا المعشوق.. فتختل أركان حياته، التي فقدت نصيبها من طاقة الحب.

وفي المرأة: تكون طاقة الحب ـ في طبيعتها الفطرية ـ موحدة الاتجاه والرغبة، كي تلائم وظيفتها الفطرية، وتحقق التكامل مع الرجل بعد اطمئنانها إلى الاختيار الصحيح، الذي يحدده العقل والعاطفة كطاقات متوافقة غير منفصلة، كما بيّنا من قبل.

أما في حالة العشق، تتحرك مشاعر المرأة في حركة متعجلة، لا تحسب مألاتها.. ولا نقصد بهذا "التعجل" هو السرعة الحركية في اختيار أو الوقوع في عشق رجل.. فغالبًا هذا لا يحدث، لأن الأمر يتطلب معرفة ورؤية وسماع ونظر ولقاء.. الخ، إنما نقصد بهذا "التعجل" هو سرعة اتجاه المشاعر إلى مسارات مجهولة.. ودون قيادة من ذات الإنسان في مجموعها، فيحدث تمرد

وانقلاب لهذه المشاعر أو "طاقة الحب" فلا تتأكد من الوضع الجديد، ومدى جدوى سعادته بالنسبة للإنسان كمرأة.. فلا تتأكد فيها أن هذا هو الحارس الأمين الذي تتوجه إليه بأغلى ما تملك وكل ما تملك "مشاعرها" تتحرك لتضع عنده ـ رغب في ذلك أو لم يرغب ـ طاقات ربما لا تستطيع أن تجدها ثانية.

❖ ❖ ❖

وتأخذ حالة العشق في واقعنا صور حادة وخطيرة جدًا، لأنه بيئة خصبة لنمو مثل هذه الأمراض الوجدانية.. فيعمل الفراغ العاطفي، والتفسخ الاجتماعي، وتورم الذات وجلدها.. على فقدان المشاعر والعواطف أصالتها الفطرية ووحدتها مع الحياة؛ فتفقد التوجه الصحيح، وحين يأتي العشق كمرض، فإنه يتوغل بسهولة وعمق دون أن يدري الإنسان، ويترك آثاره المريضة التي تبقى مع الإنسان، حتى يرجع..

يرجع إلى الصورة السوية التي يريدها الإسلام، ويعلم كذلك أنها في طاقة الإنسان.

وكما قلنا: أن العشق يظهر في أي بيئة، فهو ـ لاشك ـ موجود في النظام الاجتماعي الإسلامي، لكن ليس له بيئة مناسبة لنموه، ويسهل كذلك علاجه.. لما يضفيه هذا النظام الرباني من أسس ووسائل تضمن الحركة الفطرية للإنسان سواء في عالم الوجدان أو عالم السلوك..

وقبل أن نذكر العلاج، نحب أن ننظر إلى مسألة العشق نظرة أشمل من "التحليل النفسي" وهي النظر إلى كل الحياة الدنيا على أنها مجموعة اختبارات، لا يحدد الإنسان طبيعتها، ولا توقيتها، ولا موعد الانتهاء منها.. وما العشق إلا أحد اختباراتها فهو "اختبار المشاعر الإنسانية" وابتلاء من الله سبحانه، ليُرقي الإنسان إلى آفاق الإنسانية، بالمجاهدة الحقيقية في سبيلها والصبر على هذه الابتلاءات.. حتى يصل الإنسان إلى السعادة التي يرجوها.

❖ ❖ ❖

أمر آخر يجب التحذير منه، وهو "الحزن اللذيذ" الذي يعقب قصص الحب الفاشلة أو العشق كمرض أو غيرها عمومًا.. وهو شعور الإنسان بأنه "الضحية" المغلوب على أمرها، الواقع عليها الظلم من الجميع..!!

وفي هذه الحالة لا يريد الإنسان الخروج من هذا الحزن، ويرفض فكرة علاج نفسه ابتدأ.. كما تَخر قوى النفس وطاقاتها، وتستمتع بالسباحة في بحور الحزن !!

ولا ترغب في الخروج من تلك الدائرة القاتلة، إلى فضاء الحياة اللاحب..

والحزن غير اليأس.. إن الإنسان قد يمضي في الحياة، ويؤدي دوره فيها.. لكنه من داخله يعيش في دائرة سوداء من هذا "الحزن الخفي" ـ الذي يضفي نوعًا من الكآبة المجهولة على الحياة ـ التي تظهر آثاره فجأة بين الحين والحين.

ويجب أن يدرك الإنسان أن أول ظالم له هو "نفسه" كونه أخطأ في التعامل معها هي والحياة على الوجه الصحيح، ولم يدرك سننها وقوانينها.

وأيما كان الظالم، فيجب أن يعرف الإنسان أن مُكوثه في دائرة الحزن اللذيذ، يعني ببساطة "الانتحار البطئ"..

لذا عليه أن ينزع نفسه ـ أو ينزعه أحد ـ بالقوة من تلك الدائرة.. والعودة إلى الحياة بروح جديدة، وآمال جديدة.. والنفس قادرة على ذلك مرات ومرات، حتى يفنى عمر الإنسان.

❖ ❖ ❖

تتمثل أول خطوات العلاج في مرض العشق، في الرؤية الصحيحة لحقيقة الإنسان، وحقيقة حياته، وبالمعرفة العميقة بمكوناته الداخلية.. حتى ينشأ الفكر الصحيح، الذي يُخرج السلوك السوي، ولا قيمة لوسائل العلاج دون أن يكون هناك أساس تصوري صحيح يستطيع تفعيل تلك الوسائل..

وبعد أن يدرك الإنسان العقيدة الصحيحة عن نفسه وحياته والإله الذي خلقهما.. عليه أن يتوجه "بثقة" دون خوف أو تردد إلى هذا الإله.. ويحاول أن يُغير حركة الموجات العاطفية لديه بالتدريج نحو السماء..

سيشعر بالألم من هذا التّغير، وربما تنتابه كثير من الهواجس.. لا يلتفت إليها، ويظل في "عزمه" على تغيير مسارات عواطفه، ومعالجة ذاته مهما تكلف ذلك من تضحيات، فالنتيجة أسعد وألذ مما يتصور الإنسان.

وإذ لم يستطع الإنسحاب التدريجي، فليكن الإنسحاب الكامل المفاجئ مهما سبب ذلك من آلام وعذابات.

وليحذر من محاولة "الارتداد" مرة أخرى إذا راوده الحنين.. لأن هذا الأمر سيعقد المرض بشكل يصعب علاجه.

سيكون هناك صراع نفسي بين مبررات عقلية ورغبات نفسية وطاقة روحية متفرقة الاتجاه.. لتكن نتيجة هذا الصراع ما تكن، إلا أن تكون شيئًا واحدًا.. هو ألا تكون "سلوك محايد منطقي تجاه المعشوق" فهذا في الحقيقة "قناع للشعق" ودليل على وجوده، أنتجه الصراع الحاصل عند محاولة توجيه طاقات الحب في مساراتها الصحيحة..

يُشعل هذا الصراع ذكريات قديمة.. مثل هدايا أو كلمات أو أماكن.. الخ، لا أقول على الإنسان التخلص منها، ولكن عليه أن ينتبه إلى أنه يعيش في "صراع" لأن عفلته عن حقيقة الصراع.. تُنهي الصراع لصالح حياة الشقاء والضنك..

فتدمير صورة المعشوق أو إزالة ذكرياته، ربما لا يفيد في شيئ، لأنه المعشوق ليس هو السبب الرئيسي في "مرض العاشق".. المعشوق هو فقط الأداة التي أظهرت حقيقة مرض

الإنسان، وليس له ذنب ـ وربما دور ـ فيما يحدث للعاشق.. وإذا كان كلايهما من العاشقين، فقد أظهرا حقيقة مرضيهما لبعضهما.

كما أن محاولة التخلص من ذكريات المعشوق ـ إن كان له ذكريات ـ يجب أن يكون الإنسان حذر فيها غاية الحذر إلى كل دوافعها الوجدانية.. فقد يتخلص العاشق من ذكريات معشوقه "المادية" لكن تبقى "أصابعه الوجدانية" تمسك بزمام قلبه.. !

لذا، لا بد أن يكون الدافع ـ إذا أراد التخلص منها ـ هو الترّفع والقناعة إلى أنه يتجه إلى ما هو أعظم وألذ من هذا المعشوق مهما كان، وأنه على "ثقة" أنه سيجد العوض في الدنيا والآخرة، حينما يسير في الطريق الصحيح.. نحو السماء.

لذا، يجب على العاشق في هذا الصراع، أن يتسلح بدوام القرب من الله، عن "ثقة" في مودته ورحمته وحنانه.. حتى يلتئم القلب من جديد، وتنصلح جسوره مع الله، فيسكب الله في قلبه من السعادة والفرح والسرور والرضى والطمأنينة.. ما تشرق به نفسه من جديد، ويُولد قلب جديد يعرف معنى الحب، ويستطيع كذلك أن يحب.

وحتى لو قُدر للعاشقين أن يجتمعا في الزواج ـ ونادرًا ما يحدث ذلك ـ فلا مفر من هذا العلاج.. لا مفر من توجه القلب إلى الله، لأنه سبحانه هو الذي يملك خزائن كل شيئ.. يملك خزائن الحب والمودة والحنان والرحمة والسعادة، لا مفر من العلاج حتى يتصحح مركز الإنسان في الحياة.

❖ ❖ ❖

وبعد هذه الرحلة، تظهر الحكمة العميقة من تركيب الإنسان، الذي خلقه الله بهذه الاستعدادات والطاقات.. حتى تتم له وظيفة الخلافة الراشدة على الأرض، وتكشف الرحلة عن الصورة السوية والفطرية لطاقة الحب، والصور المشوهه والمعوقة لحركة الإنسان..

كما تكشف عن حقيقة احتياج الإنسان للعبودية.. وأن "الحب" هو الوقود إلى تحقيقها..

وحين تكون لغير الله.. تكون الحياة الضنك، وحين تكون له سبحانه.. تكون الحياة الطيبة.

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [15]

وأرجو من الله أن أكون ساهمت في وضع الإطار الفكري أو النفسي لموضوع "الحب" الذي يمكن من خلاله النظر في مشكلاتنا بالعمق الذي يهدينا إلى سبيل الرشاد..

❖ ❖ ❖

[15] [فصلت: 53]

سر عميق

لما حب الله تعالى يُنشأ كل هذه الآثار في النفس الإنسانية ؟

يَعرف من أدرك بالتجربة الواقعية ، أن محبة الله تعالى ـ بابتغاء مرضاته ، وتقديمه سبحانه على كل رغبة ومحبة لدى الإنسان ، والتسابق بالخيرات التي يحبها الله ـ تسكب في النفس سعة ، وفي الروح طلاقة ، وفي العقل حكمة ، وفي الجسد بركة ، وفي الحياة فرحة..

فما السر في هذا ؟!

إنه سر عميق.. يرجع إلى أصل النشأة الإنسانية ، وطبيعة الحياة الدنيا ، وحقيقة الحياة الآخرة..

من حيث أصل النشأة الإنسانية : الإنسان مخلوق أبدي.. يمر في حياته بثلاث حيوات.. الأولى : في الحياة الدنيا ، والثانية : حياة البرزخ ، والأخيرة الدائمة : الحياة الآخرة..

الأصل في أبديته ، يرجع إلى الروح ، فهي لا تفنى كما الجسد ، لأنها من روح الله تعالى.

للروح أشواق ورغبات ، وللجسد شهوات وحاجات.. تتجه الروح لتلبية أشواقها ، ويتحرك الجسد ليروي ظمأه..

إذا عرفت الروح طريقها الصحيح نحو تلبية أشواقها ، بالاتجاه نحو مكان نشأتها الأولى.. السماء ، فقد فلحت.. وفلح معها الإنسان جسد وروح..

وإذا فشلت، تَخطف الطير الروح، وألقى بها في مكان سحيق.. فهلكت وهلك معها الإنسان..

ويرجع هذا الهلاك، إلى أن الإنسان يركن إلى مكونات الحياة الدنيا (إنسان ومادة) إلى تلبية أشواقه الروحية وحاجاته الجسدية، فَيُوكل إليه التعامل معها دون عون من الله، فيشقى بها (إنسان ومادة) سواء حققها أم لم يحققها..

وذلك لإنه بالركون إلى الحياة الدنيا، يحتاج في تلبية أشواقه الروحية إنسان مثله، وهذا الإنسان الأصل فيه حبه لذاته ورغبته في التميز.. فيصعب ـ بل تستحيل ـ الالتقاء الروحي الصافي، وتكون تلبية الأشواق ـ إن حدثت ـ في صورة مُذلة للإنسان، ومُخضعه له.. فيحدث له الشقاء من حيث هو يريد السعادة !

ولأنه كذلك يحتاج في تلبية حاجاته الجسدية إلى المادة، ومن طبيعة المادة بالنسبة للكيان الإنساني.. أنها تفقد لذاتها بمجرد الوقوف عليها.. لذا نجد إنسان يملك من كل شيئ، ولا يشعر بالسعادة، ولا يتذوق لذة !

أما الالتجاء إلى الله لتلبية حاجات الإنسان.. روحية وجسدية، فإن هذا وحده، هو طريق السعادة.. لأن الله سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيئ، وحين يلبي أشواقه الروحية بالتوجه إلى الله، فإنه يحصل على إشباع ولذة.. لا يمكن للقلم وصفها، ثم يمتد هذا الإشباع وتلك اللذة لتشمل الوجود والأحياء.. دون إهدار لكرامته، أو استذلال لإنسانيته.. لأنه معتز بالله، ومن اعتز بالله، فلن يُذله الله لأحد..

وعندما تلمس شطري النفس الإنسانية (ذكر وأنثى) هذه المحبة.. فيحصل الإنسان ـ وكذلك في كل شيئ ـ على المتعة الحقيقية واللذة في صورتها الكاملة.. الإشباع الروحي واللذة الجسدية في آن واحد..

وذلك لأن الإنسان ـ رغم كونه روح وجسد ـ لا تنفصل في الحياة الدنيا إزدواجيته هذه.. بينما تنفصل في حياة البرزخ ويمضي كل في طريق نشأته الأولى.. ليعودا ثانية في الحياة الآخرة فلا ينفصلا إلى ما شاء الله..

ثم تأتي الحياة الآخرة، لتكون الصورة الكاملة لكل شيئ كان في الحياة الدنيا.. بعد أن "اختار" الإنسان لنفسه الصورة التي يريد أن تكون عليها حياته الآخرة..

من اختار تلبية حاجاته الفطرية ـ روحًا وجسدًا ـ بالركون إلى الدنيا (إنسان ومادة) فهو في الحقيقة اختار عبودية الإنسان، واستذلال المادة.. فحدث له الشقاء والذلة في الدنيا.. فقد "اختار" ذلك أيضًا في الآخرة: { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [1] لكنه ـ كما هي طبيعة الحياة الآخرة ـ الشقاء الكامل والعذاب المقيم خالدًا فيه.. { إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } [2].

ومن اختار تلبية حاجاته الفطرية ـ روحًا وجسدًا ـ بالالتجاء إلى الله، فهو في الحقيقة "اختار" عبودية الله سبحانه.. فيحدث له السعادة والهدى في الحياة الدينا.. فقد اختار ذلك أيضًا

---

[1] [فصلت:46]
[2] [هود:107}

في الحياة الآخرة.. { رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ } [3] لكنه ـ كما هي طبيعة الحياة الآخرة ـ السعادة الكاملة واللذة الدائمة خالدًا فيها.. { عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [4] ..

وأخيرًا ينكشف آخر جزء في هذا السر..

إن الإنسان في الحياة الآخرة، بعد أن أدرك سعادته ولذاته، يكتشف أن أكمل سعادة وأعظم لذة يرجوها.. هي رؤية الله جلّ في علاه.. { لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } [5] ..

"اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقاءك.. في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضلة"

"اللهم ارزقنا حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحبك إلينا من أهلينا وأموالنا وأنفسنا ومن الماء البارد على الظمأ، اللهم حبّبنا إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسولك وإلى عبادك الصالحين، اللهم احيي قلوبنا بحبك، واجعلنا لك كما تحب، اللهم اجعلنا نحبك بقلوبنا كلها ونرضيك بجهودنا كلها، اللهم اجعل حبنا كله لك وسعينا كله في مرضاتك"

اللهم لك الحمد ولك الشكر

---

[3] [القصص:68]
[4] [هود: 108]
[5] [ق: 35]